نحو تأصيل إسلامى للتاريخ
سلسلة التاريخ الإسلامى
للبراعم المسلمة

تاريخ الأمة الواحدة

صفحات من تاريخ الدولة العثمانية

إعداد

د. جمال عبد الهادى محمد
د. وفاء محمد رفعت
أ. على أحمد لبن

دار التوزيع والنشر الإسلامية

نحو تأصيل إسلامى للتاريخ

سلسلة التاريخ الإسلامي

للبراعم المسلمة

تاريخ الأمة الواحدة

صفحات من تاريخ

الدولة العثمانية

(٦٩٩-١٣٤٣ هـ/ ١٢٩٩-١٩٢٤م)

إعداد

د/ جمال عبد الهادى محمد مسعود

د/ وفاء محمد رفعت جمعة

أ/ على أحمد لبن

بسم الله الرحمن الرحيم

تقــديــم :

تاريخ الأمة المسلمة تاريخ عريق، يضرب بجذوره في أعماق الزمن، فهو يرتبط بالكون المسلم الذى خلقه الله مختاراً مطيعاً لله رب العالمين، ويرتبط بآدم وزوجه وبنيه، الذين كونوا أول مجتمع مسلم على سطح الأرض.

والأمة المسلمة (الأمة الواحدة) هى الأمة الشاهدة :﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ [البقرة: ١٤٣]

ومن عرف تاريخه عرف أن الله رب العالمين هو الذى خلق هذا الكون وما فيه، ومن فيه، وأن كل شيء فيه يعرف ربه وخالقه.

وعرف أنه ينتسب إلي آدم عليه السلام، وأن الله قد ارتضى لهم الإسلام دينا، ..

وعرف أن عدوه الشيطان، شيطان الإنس وشيطان الجن، الذى يحرص على اجتيال بنى آدم عن دينهم..

وعرف أن الله قد أرسل الرسل لاستنقاذ بنى آدم من براثن الشيطان، وأن أول الرسل إلى أهل الأرض هو نوح عليه السلام، وآخرهم محمد ﷺ ..

وعرف أنهم- أى جميع الرسل- دعوا إلى الإسلام، وإن كان لكل أمة شرعة ومنهاج..

وعرف أن الزمن فى حس المؤمن ممتد، فهو الدنيا والآخرة، وليست الدنيا فحسب، وأن الموت مرحلة فى الطريق..

وعرف أن البعث حق ، وأن النار حق، وأن الجنة حق.

ومن عرف تاريخه عرف أن الله رب العالمين خلقه، وأنه قد خلقه لغاية وهى عبادة الله وحده: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وأن مقتضيات العبودية لله رب العالمين، الانقياد الثابت لمنهجه سبحانه وتعالى، وصراطه المستقيم، وأن مقتضيات العبودية لله رب العالمين، حمل الأمانه التى أبت السماوات والأرض والجبال حملها، وأشفقن منها.

ومن مقتضياتها العمل المستمر في إخراج بني آدم من عبادة العباد، إلى عبادة الله الواحد القهار، ومن ضيق الدنيا إلي سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدالة الإسلام.

ومن مقتضيات لا إله إلا الله، إعطاء الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥]

ومن مقتضيات لا إله إلا الله، رفض الأفكار والمبادئ التى لا تنبثق عن شريعة الله..

ومن أدرك تاريخ الأمة المسلمة أدرك أن هذه هى مهمة الرسل فى الأرض، وهذه هى غايته فى الحياة، فحين يعطى المسلم ولاءه لله ولرسوله وللمؤمنين، يكون عبداً الله، وحين يحمل الأمانة بنفس مؤمنة، وعزيمة صادقة، يكون عبداً لله..

وحين لايقبل هديا إلا هديه، ولا تشريعا إلا تشريع دينه، يكون عبداً لله.. وحين يستمر في حركة دائمة، وجهاد دائب ليخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، يكون عبداً لله، وإلا فإنه يكون هملا من سقط المتاع، عبداً للهوى، وعبداً للطاغوت، وعبداً لليأس والقنوط.. يسير بلا غاية، ويتخبط بلا هدى، ويتعثر بلا دليل: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾ [الأنعام: ١٢٢].

إذن فليعلم المسلمون حقيقة تاريخهم، وطبيعة دينهم، وليتحرروا من حب الدنيا، وكراهية الموت، وليعرفوا الغاية التى من أجلها خلقوا، وعلى أساسها وجدوا، حتى ينهضوا بالإسلام من جديد، ويستعيدوا مجدهم الداثر، وعزيمتهم المنيعة، وقوتهم الهائلة،، ووحدتهم الشاملة، وما ذلك على الله بعزيز (١)

---

(١) تربية الأولاد فى الإسلام: عبد الله ناصح علوان، دار السلام للطباعة والنشر، صفحة ١٣، ١٤.

اللقاء الأول

ويدور الحوار حول المو ضوعات التالية:

أ) سمت الدولة الإسلامية على عهد آل عثمان.

ب) وصية عثمان لابنه أورخان.

ج) العثمانيون لم يكونوا متعصبين وإنما ظهرت العصبية الطورانية بعد الانقلاب العسكرى بقيادة الضباط الماسون.

د) أهل الكتاب يأمنون على عقائدهم وبيعهم وأموالهم فى ظل العثمانيين.

هـ) مسلمون من أهل الكتاب يتولون منصب الصدر الأعظم (رئاسة الوزراء)

و) السلطان محمد فاتح القسطنطينية يظهر التسامح العملى مع نصارى بيزنطه.

ز) أعداء الأمة المسلمة يسعون إلى إحياء العصبية والقومية والشعوبية لتفتيت وحدة العالم الإسلامى.

ح) دور جمعية الاتحاد والترقى فى ضرب الخلافة العثمانية.

ط) من هم أعداء الأمة.

الـوالـد : الحمد لله والصلاة على محمد رسول الله . لقد سبق لنا وقلنا يا أبنائى :

إن للدولة الإسلامية سمتاً لا يتغير بتغيير الزمان أو المكان ، سمتاً بينه رب العالمين فى كتابه الكريم ، ورسمه لنا رسول الله محمد ﷺ بسنته القولية والفعلية وعاشه صحابة رسول الله محمد ﷺ معيشة حقيقية، وحاول التابعون وتابعوهم أن يقتربوا منها التزاما بدينهم وإسلامهم . هذه الدولة الإسلامية ، من سماتها : أنها تقوم على ركائز وقواعد هى :

الاولى : ركيزة الدين الإسلامى ، عقيدة ومنهاجاً وشريعة ، فالدولة الإسلامية دولة عقدية تقوم على قاعدة التوحيد ﴿**اعبدوا الله ما لكم من اله غيره**﴾ (الأعراف : ٥٩) ومن منهج التوحيد تنبثق كل المناهج والشرائع التى تنظم حياة المجتمع حاكماً ومحكوماً .

الثانية : الإمام أو الخليفة المسلم الذى يتصف بصفات معينة ، بينها الشارع الحكيم وأبرزها الإسلام والإيمان ، ويجرى اختياره وترشيحه بمعرفة أهل الحل والعقد (١) ، وبيعة جمهور المسلمين على كتاب الله وسنة النبى محمد ﷺ على أرض العالم الإسلامى .

الثالثة : شعب مسلم رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا ، يعيش معه وعلى أرضه غير المسلمين من أهل الكتاب آمنين على بيعهم، ودينهم، وأموالهم، وأنفسهم، بشرط ألا يتآمروا على الأمة المسلمة التى يعيشون فى كنفها وحمايتها.

والدولة الإسلامية يا أبنائى أهدافها ربانية بمعنى أنها تدرك أن الله قد خلقها لغاية وهى العبادة ، والتى من مقتضياتها الإستخلاف فى الأرض لتعميرها بمقتضى المنهج الربانى .

والعبادة فى الدولة الإسلامية يا أبنائى لا تقف عند حد الإتيان بالشهادتين ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، وإنّما تمتد لتشمل أنشطة الحياة كلها قال تعالى : ﴿**قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك**

أمرت وأنا أول المسلمين﴾ (الأنعام : ١٦٢، ١٦٣) .

ويدخل فى ذلك حرص الإمام المسلم أو الحاكم أو الراعى على تربية رعيته على مفهوم الإسلام الشامل كما بين رب العالمين وكما كان يفعل رسول الله محمد ﷺ : **﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾** (الجمعة : ٢٧).

ويدخل فى ذلك حرص الراعى والرعية على أن تنبثق حياتهم من منهاج الله وشريعته ، وحرصهم على القيام بواجب الدعوة الى الله بكافة الوسائل ، ويدخل ضمن ذلك أيضاً : جهاد النفس والشيطان والمنافقين والكافرين ؛ لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ومن جور المبادئ والأديان إلى عدل الإسلام .

ويدخل فى ذلك أيضاً حرص الراعى والرعية ... حرص الأمة على أن يكون الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين ، والحرص على عدم الانصياع لأى أمر أو توجيه لا ينبثق عن شريعة الإسلام .

ويدخل فى ذلك أيضاً : إيمان الأمة بأن الإسلام نظام حياة شامل صالح لكل زمان ومكان ، ويجب العمل لإقامته فى واقع الناس **﴿حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾** (الأنفال : ٣٩).

ويدخل فى ذلك أيضاً حرص الأمة رعاة ورعية على نشر الإسلام وحماية العقيدة الإسلامية التى بها يتم تحرير الإنسانية، ومجاهدة من يعاديها ، ويقف عقبة فى سبيل نشرها وتعليمها والدعوة إليها ، لتصبح فى النهاية كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى وليس فى دولة الإسلام فحسب ، ولكن فى الأرض كلها ، ويستلزم ذلك إعداد الدعاة وإرسال السفراء ، وإعداد الجيوش ، وعقد الألوية ، وتحصين الثغور.

ويدخل فى ذلك أيضاً : تنفيذ شريعة الله عز وجل ، وأحكامه ، وإقامة الحدود وإقامة العدل ، ومنع الظلم وحماية الضعفاء والعاجزين ومعاقبة المجرمين والمعتدين على حقوق الله أو حقوق الناس ، وكفاية المحتاجين والعاجزين ، وجباية ما يوجبه أو يسمح به الشرع من الأموال ، وحفظها وإنفاقها ؛ لتحقيق هذه المقاصد وبلوغ الأهداف.

ويدخل فى ذلك أيضاً تقليد النصحاء وتولية الأمناء أعمال الدولة ، لتكون أعمال الدولة مضبوطة على أن توكل الأعمال لمستحقيها المستأهلين لها .

أسامة : هل كان العثمانيون يقومون بواجب الدعوة إلى الله ؟

الوالد : كما قلت لك يا أسامة : إن الدولة العثمانية كانت دولة عقدية بمعنى أنها تؤمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا ؛ ولذلك فإن الدولة كانت تدعو إلى الإسلام فى الداخل والخارج وتربى النشء عليه ، وتحميه من التيارات الفكرية المعارضة للإسلام ، وترتب على ذلك أيضاً أن جميع أنظمة الدولة ومؤسساتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والتعليمية والثقافية والعسكرية كانت تنبثق من الإسلام ... من عقيدة توحيد الله رب العالمين ، وكذلك سياستها تجاه الدول الخارجية وعلاقاتها الدولية والمحلية . كما أن أركان العقيدة الإسلامية من النظام العام الذى لا يجوز الاعتداء عليه ، كما أنه لا مجال فى الدولة الإسلامية لحرية الإلحاد أو الطعن فى النبوات باسم حرية الفكر ، كأن يقول مجرم : إن القوانين الوضعية أفضل من الشريعة الإسلامية ، أو أن يقول إن إقامة الحدود وحشية .. إلى غير ذلك ، يقول رب العالمين : ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**﴾ (المائدة : ٥٠) .

أحمد : جزاك الله خيراً يا أبى ، وأرجو أن تسمح لى أن أعرض لبعض الحقائق التى قرأتها فى كتاب العثمانيون فى التاريخ والحضارة ، وجوانب مضيئة

فى تاريخ العثمانيين الأتراك وهى تؤكد ما ذكرته .

الوالد : تفضل يا أحمد وهات ما عندك . وهذا شىء يثلج الصدر أن تطلع على المصادر والمراجع التاريخية لوحدك .

أحمد : الفضل لله ثم لك يا أبى فأنت الذى علمتنا ذلك .

الوالد : الفضل لله يا أولادى من قبل ومن بعد . هات ما عندك .

أحمد : لقد قرأت فى كتاب «العثمانيون فى التاريخ والحضارة» :

«وينقل المؤرخ التركى المعاصر قادر مصر أوغلو فى كتابه «مأساة بنى عثمان» عبارات أخرى من وصية عثمان لابنه أورخان(٢) تقول: يا بنى، إننى أنتقل إلى جوار ربى ، وأنا فخور بأنك ستكون عادلا فى الرعية مجاهداً فى سبيل الله لنشر دين الإسلام . يا بنى ، أوصيك بعلماء الأمة، أدم رعايتهم ، وأكثر من تبجيلهم ، وانزل على مشورتهم ، فإنهم لا يأمرون إلا بخير . يا بنى ، إياك أن تفعل أمرًا لا يرضى الله عز وجل وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة فإنهم سيدلونك على الخير . واعلم يا بنى ، أن طريقنا الوحيد فى هذه الدنيا هو طريق الله ، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله وأننا لسنا طلاب جاه ولا دنيا .

وينقل المؤرخ التركى المعاصر عبد القادر زاده أوغلو فى كتابه «التاريخ العثمانى المصور» عبارات أخرى من وصية عثمان تقول :

«وصيتى الأولى لأبنائى ، ولجميع الأعزاء على ، أن لا يتركوا الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله ونشر دين الإسلام الجليل ، ورفع راية محمد ﷺ عالياً . وليكن كل وقتكم لخدمة الإسلام ، ونشر كلمة التوحيد فى ربوع العالمين ، وإننى أقول لكم : إننى أدعوا الله عز وجل أن يحرم من شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة ، كل واحد فيكم يبتعد عن طريق الإسلام، ويظلم الناس ، ويترك الجهاد» .

وفى وصية السلطان محمد الفاتح ، أنعم به من فاتح(٣) ، لولده بايزيد ،

كما تروى معظم المصادر التركية تطالعنا هذه العبارات :

«يا بنى ، إن نشر الإسلام فى الأرض هو واجب الملوك على الأرض ، فاعمل على نشر دين الله حيثما استطعت» .

يا بنى ، اجعل كلمة الدين فوق كل كلام ، وإياك أن تغفل عن أى أمر من أمور الدين ، وأبعد عنك الذين لا يهتمون بأمر الدين ، وإياك أن تجرى وراء البدع المنكرة .

يا بنى ، قرب منك العلماء ، وارفع من شأنهم ، فإنهم ذخيرة الأمة فى الملمّات .

يا بنى ، حذار أن تغرك كثرة الأموال والجنود ، وإياك أن تخالف أمر الشريعة فى أى شأن ، واحرص على الدين فإنه سر انتصارنا» .

وأيضاً حينما انتهت معركة نيكوبولى(٤) بانتصار العثمانيين ، وأسر كثير من أشراف فرنسا منهم الكونت دى نيفر قائد قوات بورغونيا وولى عهدها . وقد ألزم هذا الكونت على القسم بألا يعود إلى حرب العثمانيين . وبعد قرار بايزيد بإطلاق سراح الأمراء الأسرى بعد دفع الفدية ، أراد بايزيد أن يحلّ الكونت دى نيفر من قسمه . قال بايزيد : أيها الكونت لك أن تعود مرة أخرى لمحاربتى لكى تمسح العار الذى لحق بك . واعلم أنى لا أخاف من عودتك وإلا ما كنت أطلقت سراحك ، تعال وقتما تشاء فستجدنى وجنودى أمامك . ذلك لأنى ولدت لكى أنتصر على المحاربين الصليبين الذين أجدهم أمامى) .

وعقب انتصار العثمانيين فى نيكوبولى ، أرسل الأمير بايزيد الأول ، أنباء هذا الانتصار إلى الخليفة المتوكل العباسى بالقاهرة ، فكان جواب الخليفة عليه أن أرسل إليه تشريفاً وخلعه سيفا وكان هذا معناه الاعتراف ببايزيد سلطاناً على إقليم الروم .

الأولاد : الله أكبر .. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يمن على الأمة المسلمة بأمثال هؤلاء الأمراء .. آمين .

الـوالـد : آمين والآن هات ما عندك يا محمد .

محمـد : ما هى القواعد والأركان التى كان يقوم عليها بناء الدولة العثمانية ، والتى كانت ضماناً قويا لبقائها وثباتها وتنفيذ أحكام الله بمعزل عن تلاعب الأهواء بها طيلة هذه الفترة الطويلة ؟

الـوالـد : سؤال جيد يا محمد ..الأركان والقواعد ، وهى التى يجب أن يقوم عليه بناء الدولة الإسلامية فى كل زمان ومكان :

أولا : وحدة الأصل البشرى ، بمعنى أن كل الأجناس التى تعيش على أرض الدولة ..كلهم عبيد لله .. أصلهم واحد ، فلا تفاوت بينهم فى الكرامة الإنسانية فيما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات ، فالإسلام آخى بين محمد العربى ، وسلمان الفارسى ، وبلال الحبشى ، وصهيب الرومى .

ثانياً : لا خضوع مطلق إلا لله ، بمعنى أنه ليس لأحد من البشر من رعايا الدولة الإسلامية ، فرداً كان أو جماعة يستحق أن يخضع له الآخرون خضوعاً مطلقاً غير مقيد ، لأن هذه الصفة يستحقها خالق الإنسان .

ثالثاً : الله هو صاحب الحق فى التشريع ، فالحاكم والمحكوم ليسوا مشرعين وإنما هم ينفذون شريعة الهية تحددت فى كتاب ثابت النص هو القرآن والسنة. يقول رب العالمين ﴿**فاحكم بينهم بما أنزل الله**﴾ (المائدة : ٤٨)، ويقول سبحانه : ﴿**ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون**﴾ (الجاثية : ١٨)

رابعاً : المسلمون مستخلفون لتحقيق رسالة الإسلام فى الأرض ، يقول رب العالمين : ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين**﴾ (الشورى : ١٣) .

خامساً : صلة المسلمين –الذين يجب أن ينتموا الى دولة الإسلام ، ويرتبطوا بها– صلة أخوة فى العقيدة ، وصلتهم بالدولة ورابطتهم التى تشدهم إليها هى رابطة انتماء اختيارى إلى عقيدة إيمـــانية ، وإلى شريعة منزلة ، وليست رابطة نسب قبلى أو عنصرية أو قومية : يقول رب العالمين : ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾ (الحجرات : ١٠) .

سادساً : الإنسان مخلوق محكوم بحكم الله ، الذى خلقه وسواه ونفخ فيه من روحه ، ومنحه صفات القدرة والعلم والحياة والإرادة ، وهو بهذه الصفة – صفة التكريم الإلهى – له حقوق ليس لأحد أن ينتهكها، حتى هو نفسه لا حق له أن يهدرها أو يتنازل عنها ، ولا حق لأحد أن يهدر حريته ، ولا حق لأحد فى أن يغير خلقه، ويمثل به ، وعن هذا المبدأ تنبثق حقوق الإنسان فى الإسلام من حماية العقيدة والنسل والمال والنفس والعقل والكرامة ومنع القتل والسكر والتعذيب والتمثيل وحجز الحريات والشتم بالنسبة لجميع البشر(٥) .

أسـامـة : ولكن هل راعى العثمانيون المبادئ الأساسية التى أوجب الإسلام مراعاتها فى تأسيس الدولة فعلا ؟

الـوالـد : نعم يا بنى ، هذا النموذج هو الذى حاول العثمانيون الاقتراب منه ، فنجحوا أحياناً وفشلوا أحياناً أخرى ، ولكن الفشل لا يعنى، رفض العثمانيين للنظام الإسلامى كله ، ولكن يعنى أن الحياة لم تكن دوماً منضبطة فى بعض جوانبها ، وفى سلوكها، بمنهاج الله وشريعته ودليل ذلك، أن الحاكم العثمانى ، لم يكن دوما متصفاً بالصفات التى تؤهله لتولى إمارة الدولة العثمانية ، كما أن أمر اختياره لم يكن متروكاً لأهل الحل والعقد ، لأن آل عثمان ساروا على نمط الملك العضوض ، الوراثى ، ولكن رغم هذا ظلت الدولة العثمانية دولة إسلامية، بمعنى أنها رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا ، منذ بداية تأسيسها ٦٩٩هـ/١٢٩٩م وحتى عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م ، أى عندما

وقع الانقلاب العسكرى الذى قاده حزب الاتحاد والترقى التركى لإسقاط السلطان عبد الحميد الثانى، تمهيداً لإلغاء الخلافة وتحويل الدولة العثمانية إلى دولة لا دينية ، ومن هنا يجب على دارسى التاريخ ، أن يفرقوا بين فترتين من تاريخ الدولة العثمانية :

الفترة الأولى : الدولة العثمانية منذ بداية تأسيسها كإمارة (٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م) وحتى نهاية حكم السلطان عبد الحميد الثانى (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م) وسياسة الدولة فى هذه الفترة كانت(٦) سياسة إسلامية فى الغالب .

الفترة الثانية : الدولة العثمانية منذ الانقلاب العسكرى الخائن لدينه ووطنه والذى قام على أكتاف الاتحاد والترقى وأطاح بالسلطان عبد الحميد الثانى عام (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م) وأخذ ينفذ مخططه فى ضرب الخلافة وتمزيق العالم الإسلامى ، وتمكين الأعداء منه، بعد ضرب الإسلام وإجهاض قوة المسلمين.

هذا هو النموذج الذى حاول مؤسسو الدولة العثمانية الاقتراب منه فنجح البعض منهم أحياناً وفشل البعض الآخر أحياناً أخرى ، وشكل الفشل انحرافاً زادت زاويته بمرور الأيام فكان عاملا من عوامل سقوط الدولة العثمانية . هذا الانحراف نلمحه فى تبنى نظام الحكم الوراثى (الملك العضوض) .

الأولاد : جزاكم الله خيراً يا أبى .

الوالد : وجزاكم يا أبنائى ، والآن نواصل حديثنا عن الشبهات التى أثارها المستشرقون ومن سار على نهجهم فى وجه تاريخ الدولة العثمانية .

أسامة : لو أذنت لى يا أبى ، لماذا إذن يتهم الكثيرون العثمانيين بالتعصب للجنس التركى ، وما مدى حقيقة هذه التهمة ؟ .

الوالد : يمكن لك يا أسامة أولا : أن تتبين بسهولة أن هذا الاتهام لا يقوم

على دليل ، إذا ما عرفت أن الذين ألقوا بهذه التهمة هم أعداء الأمة المسلمة ، المستشرقون من اليهود والنصارى ، ومن سار على نهجهم ، الذين قال الله فيهم : **﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾** (البقرة : ١٣٠) .

وهم لا يملكون دليلا على هذه التهمة سوى التعصب والحقد على الدولة العثمانية وهذه لا تصلح أن تكون دليلا .

ثانياً : أن الدولة العثمانية -كما قلنا- دولة رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا ، والإسلام لا يعرف تفاضلا بين أبناء آدم على أساس الجنس أو العرق ، فالكل أصله واحد ، ولا تفاضل بينهم إلا بالعمل الصالح، إلا بالتقوى ، والدليل قول الله تعالى : **﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إنَّ الله كان عليكم رقيبا﴾** (النساء : ١)

وقوله سبحانه : **﴿يأيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنَّ الله عليم خبير﴾** (الحجرات : ١٣) .

وأيضاً حديث رسول الله محمد ﷺ القائل فيه : «كلكم بنو آدم ، طف الصاع لم تملؤوه ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين أو تقوى» (رواه أحمد) .

وقد حذر رسول الله محمد ﷺ من العصبية ، فقال : «ليس منّا مَنْ دَعاَ إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية » (رواه أبو داود) .

وقال عنها : «دَعوها فإِنَّها مُنْتَنَةٌ» (رواه البخارى ومسلم) .

ثالثًا : أن الدولة العثمانية وهى تقود جيوش الموحدين لتحرير أبناء أوروبا من قبضة الطاغوت ، قد ترتب عليه أن يصبح جزء من أبناء أوروبا على

اختلاف جنسياتهم وقومياتهم ولغاتهم جزءاً من رعايا الدولة العثمانية الإسلامية ، أى أن جميع القوميات والملل غير الإسلامية سواء النصارى أو اليهود على اختلاف طوائفهم ، كانوا يشكلون مع العنصر التركى ، أمة واحدة ، للمسلمين دينهم ولبقية الملل والنحل والعناصر والقوميات مللهم ، يأمنون فيها على أديانهم وأعراضهم وأموالهم وأنفسهم بشرط أن يكونوا يدا واحدة ضد أعداء الأمة المسلمة ، وبشرط ألا يتآمروا مع أعداء الدولة الإسلامية (العثمانية) . وتاريخ الدولة العثمانية شاهد حى على عدم تعصبها للجنس أو القومية أو العنصر .

محمـود : معنى ذلك أن العقود الأولى للدولة العثمانية ، شهدت دخول أعداد كبيرة من أبناء أوروبا على اختلاف قومياتهم وأديانهم تحت حكم الدولة العثمانية فى الإسلام ؟ .

الـوالـد : نعم .

إيمـــان : وهل كانت لهؤلاء الذين أسلموا نفس حقوق المسلمين ؟

الـوالـد : نعم ، وهذا ما لا نجد له مثيلا فى تاريخ غير المسلمين .

أسـامـة : نريد مزيداً من الإيضاح ، والدلالة على هذا العرض الذى قدمته يا أبى بارك الله عليك.

الـوالـد : لقد فتح العثمانيون الطريق أمام الذين أسلموا من البلاد التى فتحوها ، للوصول إلى أعلى مناصب الدولة (الصدارة العظمى) بغض النظر عن أصلهم . لم ينظر العثمانيون في ذلك إلا إلى الإسلام ، لم ينظروا إلى العرق أو الجنس أو البلد أو اللون كما تفعل كثير من الدول (٧) المعاصرة الآن .

محمـود : إذن لم يقسم العثمانيون رعايا الدولة إلى طبقات كما فعل أبناء أوروبا (الروم) الذين قسموا رعايا البلاد التى احتلوها إلى المواطن الرومى من الدرجة الأولى ، الذى له كل الحقوق السياسية والمدنية ، والمواطن الرومى من الدرجة الثانية ، وهو من ليست له حقوق سياسية ، والمواطن

اللاتينى ، واللامواطن ، والعبيد (٨) الذين ليس لهم حقوق مدنية أو سياسية .

الـوالـد : لا يا بنى ، لم يفعل العثمانيون مثلما فعل أبناء أوروبا « الروم » لأن العثمانيين كانوا مسلمين ، وكانوا حريصين على تطبيق الإسلام فى كل شىء ، فالمسلم بغض النظر عن ديانته الأولى سواء كان مسيحياً أو يهودياً ، وبغض النظر عن أصل عرقه وملته ، كانت له كل حقوق المواطن العثمانى المسلم ، بل وله أن يلى أى منصب من مناصب الدولة حتى منصب الصدارة العظمى ، ولكن بشرط كما حدد السلاطين العثمانيون ، أن يكون مؤدياً للصلاة فى أوقاتها ، وهذا له مدلول عظيم وهام لمن قدر له أن يختار ليولى إنساناً ما إمارة أو مسئولية داخل الدولة الإسلامية .

محمـود : اعطنا نماذج من الذين أسلموا وقدر لهم أن يتولوا مناصب فى داخل الدولة العثمانية .

الـوالـد : الأمير خوسيه (كوسه) ميخائيل (٩) الذى أسلم فى زمن عثمان بن أرطغرل (٦٩٩-٧٢٧هـ / ١٢٩٩-١٣٢٦م) وأصبح من قادة الدولة المرموقين ، ثم تبعه أبناؤه وأحفاده على نفس الطريق .

وكذلك القائد البيزنطى أفرينوس حاكم مدينة بورصة (١٠) الذى عهد إليه السلطان أورخان ٧٢١-٧٦٢ هـ (١٣٢٦-١٣٦٠م) بقيادة أحد الجيوش بعد إسلامه ، ثم خلفه ابنه «على بن أفرينوس » الذى أسند إليه السلطان الفاتح قيادة أحد جيوشه .

وأذكر أيضاً .. الأمير أحمد بن ملك البوسنة إسطفن (١١)، ومنهم أيضاً محمود (١٢) باشا وهو من أصل بيزنطى وكان نصرانياً ، وصل إلى منصب الصدر الأعظم فى زمن السلطان محمد الفاتح ، والذى بلغ من شدة تدينه وحسن إسلامه أنه كان يلقب بالولى ، واستمر فى توليه مسئولية رئاسة الوزراء أربعة عشر عاماً متتالية .

أسامة : لله دركم يا آل عثمان .

الوالد : وقد أورد زياد أبو غنيمة إحصائية نقلا عن إسماعيل حامى دنشمند فى كتابه «موسوعة التاريخ العثمانى» ، بما يؤكد أن العثمانيين لم يكونوا متعصبين لعرق معين أو لقومية معينة .

هذه الإحصائية تؤكد أن الذين تولوا منصب الصدر الأعظم ، أى رئاسة الوزارة قد بلغوا مائتين واثنين وتسعين شخصاً ، منها: ١٣٢ من أصل تركى ، ٤٩ من أصل أرناؤوطى (سكان ألبانيا) ، ٢٣ من أصل بيزنطى، ٦ من أصل سلافى ، ١٣ من أصل يوغسلافى (بوشناق) ، ١٤ من أصل شركسى ، ١من أصل شيشانى ، ٤ من أصل عربى ، ٣ من أصل أرمنى ، ١ من أصل روسى ، ١ من أصل يهودى ، وينتمى الباقون إلى قوميات غير التركية (١٣) .

جزى الله زياد أبو غنيمة خير الجزاء على هذا البيان ، وسامح الله هؤلاء الذين يحاولون النيل من الإسلام والمسلمين بالباطل .

أسامة : ولكن هناك سؤال آخر ، إذا كان العثمانيون قد جعلوا وشيجة العقيدة فوق أية رابطة عنصرية أو عرقية أو قومية ، فما هو السبب الذى دفع السلطان محمد الفاتح إلى عزل محمود باشا (البيزنطى الأصل) من رئاسة الوزراء فيما بعد .

الوالد : لهذا قصة ، تكمن فى هؤلاء الذين يسعون إلى إشعال نار الفتنة والكيد للمخلصين لدى السلاطين العثمانيين للخلاص منهم والوثوب إلى مواقعهم وأخذ مناصبهم ، وهذا مرض موجود فى كل زمان ومكان .

فقد استطاع شخص يسمى محمد باشا –من أصل بيزنطى أيضاً– الذى أسلم أن يوقع بين السلطان محمد الفاتح وبين محمود باشا ، عام ٨٧١هـ/١٤٦٦م ، فعزله وعين محمد باشا مكانه .

محمود : ولكن .. هذا دليل على تسرع السلطان محمد الفاتح

(٨٥٥-٨٨٦هـ)، وكان يجب أن يتثبت من الأمر والله تعالى يقول : **﴿يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾** (الحجرات : ٦).

الـوالـد : ولكن صاحب الوشاية لم يكن فاسقًا فى الظاهر ، وعلى كل فإن هذا هو الذى فعله السلطان محمد الفاتح ، لقد بحث الأمر وعرف أن محمود باشا مجنى عليه وعرف أن محمد باشا قد دس عليه ، وحينما عرف حقيقة هذا المنافق (محمد باشا) عزله عام ٨٧٤هـ/١٤٦٩م ، وأعاد لمحمود باشا اعتباره ، فعينه قائداً عاماً للأسطول العثمانى فى بحر إيجة ، بل إنه عينه مرة أخرى وزيراً أعظم (١٤).

محمـود : جزى الله السلطان محمد الفاتح خيراً على هذا .

الـوالـد : نموذج آخر ، لقد عين السلطان محمد الفاتح اسحاق باشا -وهو من أصل بيزنطى أيضاً- وزيراً أعظماً بعد أن أسلم .

أسـامـة : ولكننا نعرف من كتب التاريخ أن السلطان محمد الفاتح قد أمر بإعدام محمد باشا .

الـوالـد : نعم -وحسب ما ورد فى كتب التاريخ- فإن السلطان محمد الفاتح لم يفعل هذا لكون محمد باشا بيزنطى الأصل ، كما تزعم المراجع الحاقدة، إنّما أصدر الأمر بإعدامه بعد محاكمة وتحقيقات أثبتت بالدليل القاطع والبينة الناصعة أن محمد باشا لم يكن صادق الإيمان ، بل كان منافقاً ، وقد انكشف نفاقه وعداؤه للإسلام ، وحقده على المسلمين ، حين بعث به السلطان محمد الفاتح على رأس جيش لإخماد عصيان أعلنه بعض أمراء سلطنة قرمان فى مدينة لارندة ، وحين أدرك الأمراء المتمردون أن قواتهم لن تصمد أمام الجيش العثمانى ، خاصة وأن أهالى مدينة لارندة كانوا يتعاطفون مع السلطان محمد الفاتح ، فروا من المدينة، فأعلن سكانها ولاءهم للسلطان الفاتح، ولكن محمد باشا أصر على

قتلهم جميعاً من غير استثناء، بل عمد إلى قتل العديد من ضباطه وجنوده الذين أنكروا عليه الإقدام على قتل آلاف من المسلمين سكان المدينة وإقدامه على إحراق المساجد فيها (١٥) ، ولم تلبث أنباء المجزرة أن وصلت إلى مسامع السلطان الفاتح ، فاستشاط غضباً ، وبلغ به الغضب مداه ، حين نقل إليه بعض ضباط الجيش أنهم سمعوا محمد باشا يقول بعد أن ارتكب تلك المجزرة .. إننى أشعر بالراحة بعد أن انتقمت للقسطنطينية !

وكان من الطبيعى أن يعزل السلطان الفاتح ذلك المنافق محمد باشا عن منصب الصدارة العظمى ، ثم يأمر بإعدامه ، جزاء ما اقترفت يداه الآثمتان من مجازر ضد المسلمين ، بعد محاكمة عادلة .

أسامة : بارك الله فيك ، وبارك الله فى زياد أبى غنيمة ، ورحم الله السلطان محمد الفاتح العثمانى ، وأخزى الله أعداء الإسلام الذين شوهوا تاريخ الدولة العثمانية .

محمود : الشيء الذى يحير العقل ، أن يتخذ الحاقدون من حادثة عزل محمد باشا وإعدامه ثغرة ينفثون من خلالها حقدهم الأسود ضد الأتراك العثمانيين ويتهمونهم بالتعصب العنصرى والقومى ، رغم أن التاريخ الذى سردته يؤكد عكس ذلك .

الوالد : إنّه الحقد يا أبنائى على الإسلام وأهله ، ألم يقل رب العالمين : ﴿ **إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون**﴾ (الممتحنة : ٢).

وبقى أن تعلموا أن السطان محمد الفاتح عين إسحاق باشا وهو بيزنطى الأصل – وقد أسلم– خلفاً لمحمد باشا فى الصدارة العظمى ، فلو كان متعصباً لقومه دون غيرهم ما فعل ذلك .

محمود : لقد كان بإمكان السلطان الفاتح ، بعد أن انكشف نفاق محمد باشا أن

يتخذ من خيانة ذلك المنافق مبرراً للبطش بكل الذين ينحدرون من أصل بيزنطى ، أو على الأقل لإقصائهم عن المراكز الحساسة التى كانوا يشغلونها فى الدولة العثمانية ، مثلما يفعل غيرهم فى عالمنا المعاصر .

أسامة : مثلما يحدث فى العالم كله ، إذا ارتكب مسلم خطأ ، يُحمل كل المسلمين الملتزمين هذا الخطأ .

الوالد : صدقتما ، ولكن السلطان محمد الفاتح كان مسلماً وكان يؤمن إيماناً صادقاً بالتوجيه الربانى الذى قال الله عنه : ﴿**ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب**﴾ (البقرة : ١٧٩). وكان يؤمن إيماناً صادقاً بأنه ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾ (الأنعام : ١٦٤)

وأنه إذا كان التسامح الذى أبداه العثمانيون الأتراك مع العناصر البيزنطية الأصل وغيرها من القوميات الأخرى ، قد أدى إلى تسرب بعض المنافقين تحت ستار التظاهر بالإسلام ، من أمثال محمد باشا إلى بعض المراكز الحساسة بالدولة ، فإن هذا التسامح قد أفرز شخصيات كثيرة حسن إسلامها ، وقام الدليل على حسن بلائها فى سبيل الله ، من أمثال : خوسيه (كوسة) ميخائيل، وأفرينوس ، ومحمود باشا وغيرهم .

إيمان : ولكن يا أبى إن هذا التسامح قد أدى إلى تسرب عدد من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر والحقد عليه وعلى أهله ، إلى مراكز الدولة العليا مما عاد على المدى البعيد بالضرر الشديد على الدولة العثمانية ، بل كان أحد الأسباب الرئيسية فى انهيار الدولة العثمانية والقضاء عليها .

الوالد : هذا صحيح ، ولكن أريد هنا أن أنبه إلى عدة نقاط وهى : أن الإسلام لم يطالب ولى الأمر المسلم أو المسلمين أن يفتشوا عن صدور الناس ليثبتوا حقيقة الإيمان، بل لهم الظاهر ، والله يتولى السرائر ، بمعنى :

إذا شهد إنسان أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله فقد ولج باب الإسلام ، ولا يجوز لنا أن نكفره -طالما أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض- برأى أو معصية إلا إن أقر بكلمة الكفر ، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ، أو كذب صريح القرآن ، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال ، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر .

والعثمانيون كانوا يلتزمون -على قدر علمنا- بالإسلام ، وتصرف السلطان محمد الفاتح وغيره يؤكد صدق التزامهم بالإسلام الذى جعل رابطة الدين ، ووشيجة العقيدة فوق أية روابط عنصرية أو عرقية أو قومية .

أسامة : ولكن يا أبى ألا يوجد فى أبناء أوروبا رجل يشهد لهؤلاء العثمانيين شهادة منصفة ويتصدى بها لعملية التجريح التى قام بها بنو قومه للسلاطين العثمانيين .

الوالد :لا يوجد يا أسامة ، وصدق الله القائل : ﴿لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون﴾ (التوبة : ١٠) .

محمود : إذا كان العثمانيون قد ارتفعوا بالتزامهم الإسلامى فوق العصبية القومية والتركية ، فلماذا انتهجوا سياسة : تركيا للأتراك ، وتعصبوا لطورانيتهم إلى حد العداوة للإسلام ومهاجمته باعتباره ديناً عربياً ، وإحيائهم لعقائد الترك الوثنية السابقة على الإسلام كالوثن التركى القديم « بوزقورت » أو الذئب الأبيض ، الذى صوروه على طوابع البريد ، ووضعوا له الأناشيد، وألزموا الجيش أن يصطف لإنشادها عند كل غروب ، وكأنهم يحلون تحية الذئب محل الصلاة ، مبالغة منهم فى إقامة الشعور الجنسى (القومى) مقام الشعور الإسلامى؟

الوالد : إن العثمانيين المسلمين ظلوا طيلة عهد الخلافة وحتى نهاية حكم

السلطان عبد الحميد الثانى (١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م) ، ظلوا برءاء براءة تامة من الدعوة إلى العصبية أو القومية التركية .

ولم يعرف التاريخ العثمانى دعوة إلى الطورانية أو القومية التركية إلا على أيدى حفنة من الذين كانوا ينتسبون إلى جمعية الاتحاد والترقى(١٦)، من الذين أغراهم تسامح العثمانيين الدينى ، وترفعهم فوق العصبيات القومية والعرقية ، فتسللوا كالأفاعى إلى كيان الدولة العثمانية بعد أن تستروا بالإسلام نفاقاً ومكرا ، ثم لم يلبثوا أن تسربوا إلى مواقع حساسة فى الكيان السياسى والتشريعى والعسكرى للدولة العثمانية ، حتى إذا سنحت لهم الفرصة وثبوا على السلطة فسيطروا عليها سيطرة خانقة ، ولم يبق للعثمانيين المسلمين أى تأثير على شؤون الدولة ولم يعد الخليفة إلا دمية بين أيدى هؤلاء .

إن أعضاء جمعية الاتحاد والترقى ، وجميعهم من غير استثناء كانوا ألعوبة بيد الإستعمار والصهيونية العالمية ، من خلال انتمائهم للمحافل الماسونية التى ترتبط ارتباطاً عضوياً بالصهيونية ، كما أن معظمهم كانوا من اليهود الذين تظاهروا نفاقاً باعتناق الإسلام ، والذين عرفوا باسم يهود الدونمة .

أسامة: أى أنه من الواضح الآن ، أن الدولة العثمانية قبل حدوث الانقلاب العسكرى الذى وقع على أكتاف الاتحاد والترقى عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م ،كانت دولة إسلامية غير متعصبة لقوم أو لجنس أو لعرق . وبعد الانقلاب ، وعزل السلطان عبد الحميد الثانى عام (١٣٢٧هـ - ١٩٠٩م)، أصبحت الدولة عنصرية قومية تركية .

الوالد : تماماً يا أسامة ، وأحيلكم إلى كتاب الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية ، دراسة حول كتاب النكير على منكرى النعمة من الدين ،

والخلافة والنعمة لشيخ الإسلام مصطفى صبرى تحقيق د. مصطفى حلمى ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، وكتاب الإتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، للأستاذ الدكتور محمد محمد حسين ، ج١ ، ٢ دار النهضة العربية بيروت ، والدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها للأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠ ، وكذلك مذكرات السلطان عبد الحميد ترجمة وتقديم وتحقيق وتعليق ا.د محمد حرب عبد الحميد ، دار الأنصار القاهرة وكذلك كتاب العثمانيون فى التاريخ والحضارة تأليف أ.د. محمد حرب عبد الحميد ، المركز المصرى للدراسات العثمانية القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م وأيضاً كتاب المسلمون فى آسيا الوسطى والبلقان لنفس المؤلف لمعرفة المزيد من المعلومات عن تاريخ الدولة العثمانية .

أحمد : سامحنى يا والدى ، لقد كان النقاش مثمراً ومفيداً ، فقد عرفنا أن الدولة العثمانية الإسلامية لم تكن تعرف التعصب ، وعلى هذا الأساس فتحت الدولة العثمانية ذراعيها لكل أصحاب الملل والنحل -أهل الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم- يعيشون داخل ديار الدولة الإسلامية ويشكلون مع الأمة المسلمة أمة واحدة ، للمسلمين دينهم ولأهل الكتاب دينهم ، يأمنون على أنفسهم وأموالهم وديارهم ، طالما أنهم لا يتآمرون على الدولة الإسلامية ، وطالما لا يعينون الأعداء ضدها ، امتثالا لتوجيهات رب العالمين القائل: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنَّما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ (الممتحنة : ٨، ٩).

الوالد : تماماً يا أحمد .

أحمد : إذن لماذا هذا الحقد من أبناء الملل وبخاصة أبناء أوروبا ضد الدولة العثمانية ؟.

الوالد : عاش أبناء الدولة العثمانية المسلمون وغير المسلمين ، آمنين مطمئنين كل يعرف حقوقه وواجباته لا يتعداها وظل الأمر هكذا حتى تعرضت ديار الإسلام للغزو الصليبى الأوروبى ، والغزو التتارى والمغولى ، وواصل الأعداء مؤامراتهم لتفتيت وحدة العالم الإسلامى من الداخل .

لقد أدرك أبناء أوروبّا أعداء الأمة المسلمة أن إحياء العصبية والقومية والوطنية والشعوبية هى أقصر طريق إلى تفتيت وحدة الأمة ، وتمزيق دولة الخلافة العثمانية . واعتمد أبناء أوروبا فى ذلك على الأقليات النصرانية فى أرجاء الوطن الإسلامى . ولتحقيق ذلك ، عمد أبناء الأقليات فى ديار الإسلام إلى إنشاء جمعيات أدبية وعلمية فى ظاهرها ، وبينما تسعى إلى إحياء النعرة العصبية والطائفية لتفتيت وحدة الأمة وردها عن دينها وتمكين العدو الأجنبى من رقابها . وكان أهم مراكز هذه الجمعيات : بيروت ، وإستانبول ، فقد تشكلت فى بيروت جمعية العلوم والفنون تحت رعاية الإرساليات التبشيرية الأمريكية (١٧) وكانت تدعمها الإرساليات البروتستانية .

وقام اليسوعيون بتأسيس الجمعية الشرقية (١٨) عام ١٢٩٦ هـ/١٨٧٨م. وهاتان الجمعيتان وغيرهما كانت تدعو إلى القومية ، ولهذا ابتعد المسلمون عن الاشتراك فيها ، لمعرفتهم بنوايا النصارى وحرصهم على تجزئة الأمة ، ومعرفة الذين خلفهم من الدول الأوروبية التى تحركها الصليبية واليهودية ولهذا لجأ الأعداء إلى تأسيس جمعيات تضم أعضاء غير نصارى ، مسلمين ودروزا وغيرهم ، كى يمكن ضرب

الإسلام بيد أبنائه، ولهذا الهدف تأسست الجمعية العلمية العربية عام ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م .

وفى إستانبول تأسست جمعيات كانت فروعًا لجمعيات تأسست خارج البلاد مثال ذلك : جمعية تركيا الفتاة (١٩) التى تأسست فى باريس ، وكان لها فروع فى برلين ، وسلانيك ، وإستانبول وكانت رئاستها لأحمد رضا بك الذى فتن بأوروبا وأفكار الثورة الفرنسية ، وكان يدعو إلى تقليد الغرب ، والإدارة اللامركزية بالدولة العثمانيّة ، وكان توجيه جميع الفروع يتم من خارج الدولة العثمانية من باريس. ورحبت المحافل الماسونية بالجمعية .

وكان أخطر مراكز الجمعية مركز سلانيك ، الذى كان يضم عدداً من الضباط الذين كونوا جناحاً عسكرياً فى هذه الجمعية ، وعرف باسم الاتحاد والترقى والذى قام بالانقلاب العسكرى ضد دولة الخلافة عام (١٣٢٦ هـ/١٩٢٨م) . وكانت اللقاءات تتم فى المحافل الماسونية التى اهتمت اهتماماً كبيراً بحركة الجمعية ونشاطها وبتنظيم الاتحاد والترقى ، بل كانت الاجتماعات تنعقد أحياناً فى مقر القنصليات الأجنبية .

أسامة : ولكن كيف استخدمت أوروبا هذه الجمعيات لإثارة الفتن الطائفية وتدمير وحدة دولة الخلافة ؟

الوالد : مثال ذلك يا أسامة حينما أرادت روسيا توسعة حدودها من جهة بلغاريا، والنمسا ومن جهة البوسنة والهرسك ؛ عمدت إلى تأسيس جمعيات لنشر النفوذ الروسى بين النصارى الأرثوذكس والصقالبه الذين كانوا يعيشون تحت الحكم العثمانى ، وكانت تمدها بالسلاح للخروج على الدولة العثمانية ، وكانت هذه الجمعيات تبذل بدورها جهدها وتنتهز الفرصة لإثارة سكان الصرب ، والبوسنة والهرسك ضد الدولة العثمانية .

وقد واتتهم الفرصة ، حينما أنزلت الدولة العثمانية ، بعض الأسر الشركسية المسلمة فى بلاد البلغار ، بعد فرارهم إثر احتلال الروس لها ، فأشاعوا أن الحكومة العثمانية تريد إقطاع الشركس أرضاً بلغارية ، فقام النصارى البلغار بتمرد مسلح ، ولكن نجح السلطان عبد الحميد الثانى فى القضاء على هذا التمرد ، فتضايقت الدول الأوروبية ، ولجأت إلى تغذيته مرة أخرى حينما أشاعت أن الجنود العثمانيين كانوا يرتكبون أعمالا وحشية فى حق الأقليات النصرانية .

ولم يكن ذلك صحيحاً بل على العكس لقد ارتكب البلغار من الأعمال الوحشية ما تقشعر له الأبدان ، إذ أنهم كانوا يهاجمون المسلمين ويبيدونهم .

وكالعادة تدخلت الدول الأوروبية وطالبت الدولة العثمانية بتحقيق مطالب الأقلية الانفصالية البلغارية ، وتعيين حاكم نصرانى على بلادهم .

ويدخل فى ذلك أيضاً تمرد الصرب والجبل الأسود بقيادة أميرها بتشجيع من روسيا وألمانيا والنمسا وإنكلترا للإنفصال عن الدولة العثمانية . وفى أعقاب قيام الدولة العثمانية بتسيير الجيوش للقضاء على تمرد الصرب والجبل الأسود وخروج أميرها على الدولة، اجتمع مندوبو الدول الأوروبية فى إستانبول وقدموا اقتراحات للدولة العثمانية منها :

١- تقسيم بلاد البلغار إلى ولايتين ، ويكون ولاتها من النصارى الأجانب أو التابعين للدولة .

٢- أن تشكل الشرطة البلغارية من النصارى ، ويكون نصف ضباطهم من المسلمين والنصف الآخر من النصارى .

٣- أن تشكل لجنة دولية لتنفيذ القرارات .

٤- إعطاء هذه الامتيازات لإمارتى البوسنة والهرسك .

وكان موقف السلطان عبد الحميد موقفاً ينم عن شخصية الحاكم المسلم، لقد اعتبر ذلك تدخلا فى الشئون الداخلية للدولة العثمانية ، ورفض تنفيذ هذه القرارات ، ولكن المؤامرة كانت أكبر من قدراته وقدرة الدولة.

ولعله قد اتضح أمامكم الآن مدى الحقد الأوربى الصليبى اليهودى على العالم الإسلامى . يقول الله تعالى : ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا**﴾ (المائدة : ٨٢) .

ذلك الحقد الذى نبهنا الله سبحانه وتعالى إلى خطورة أهدافه : ﴿**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا**﴾ (البقرة : ٢١٧) .

وقول الله تعالى : ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**﴾ (البقرة : ١٢٠) .

وقول الله تعالى : ﴿**إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا لكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون**﴾ والله سبحانه وتعالى من رحمته أن نبه الأمة : ﴿**وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين**﴾ (الأنعام : ٥٥) . وهذا التنبيه لابد وأن ينبنى عليه عمل : ﴿**يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم**﴾ (النساء : ٧١) .

﴿**لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين**﴾ (آل عمران: ٢٨) . ﴿**يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين**﴾ (الأحزاب : ١) . ﴿**يأيها النبى جاهد الكفار**

والمنافقين واغلظ عليهم﴾ (التوبة : ٧٣) . وهذا العمل يحتاج إلى إعداد ومن هنا كان قول الله تعالى :**﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين لا تعلمونهم﴾** (الأنفال : ٦٠) . فهل عرفتم يا أبنائى أسباب حقد أبناء أوروبا على المسلمين وما يهدف إليه وواجبنا حياله .

يقول ربنا رب العالمين : **﴿إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾**

وللحديث بقية إن شاء الله .

أسئلة حول اللقاء الأول

(١) من هو مؤسس الدولة العثمانية؟ وما هو سمتها؟ هل رضيت بالله ربا وبالإسلام دينًا ومحمد ﷺ نبيًا ورسولا؟

(٢) متى تأسست الدولة العثمانية؟ ومتى أسقطت؟ ومن الذى عاون فى إسقاطها؟

(٣) ما هى الحدود السياسية التى كانت عليها الدولة العثمانية؟ اذكر اسم العاصمة؟

(٤) من هو فاتح القسطنطينية؟ (اذكر التاريخ) وما هو الاسم الذى سماها به؟ من هو الشخص الذى اتخذ لتركيا عاصمة أخرى بعد الانقلاب العسكرى؟ وماذا تعرف عنه؟

(٥) ما هى العوامل المشتركة بين الخلافة العثمانية والخلافة الإسلامية التى أقامها آدم على سطح الأرض؟

(٦) ما هى الدروس المستفادة من وصية عثمان لابنه أورخان.

(٧) أمن أهل الكتاب فى ظل الإسلام على عقائدهم وبيعهم وأموالهم وأنفسهم، فهل تحقق نفس الشيء للمسلمين فى ظل الحروب الصليبية فى الأندلس؟ فى روسيا؟ فى البوسنة والهرسك؟ فى الهند؟ فى كشمير؟ فى الفلبين؟ فى أريتريا وليبيريا ومالى وغيرها من ديار الإسلام؟ لماذا؟

(٨) ما هو دور المنظمات السرية (تركيا الفتاة وحزب الاتحاد والترقى) فى التمكين لأبناء أوروبا من تمزيق الدولة العثمانية بعد ضرب خلافتها؟ وما هى الدروس المستفادة؟

(٩) من هم أعداء الأمة المسلمة؟

(١٠) ما هى ملاحظاتك على الحوار فى هذا الجزء؟ هل هناك غموض فى عرض المعلومات التاريخية؟

(١١) هل اطلعت على سلسلة التاريخ الإسلامى للبراعم المسلمة:

(١) الأصول الثلاثة الله الرسول الإسلام. والسلسلة من تأليف د. جمال عبد الهادى والدكتورة وفاء محمد رفعت والناشر دار الوفاء للطباعة والنشر وما رأيك فى محتوياتها العلمية.

(٢) تاريخ الأمة الواحدة البداية الحقيقية (آدم وزوجه وبنوه يكونون أول مجتمع مسلم).

(٣) نوح عليه السلام أول رسول إلى أهل الأرض يدعو إلى الإسلام.

مصادر ومراجع اللقاء الأول

(١) ولا يصبح اختياره وترشيحه نهائيا إلا ببعية جمهور المسلمين على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ (السياسة الشرعية لابن تيمية ، الأحكام السلطانية للماوردى ، استخلاف أبى بكر الصديق ، د.جمال عبد الهادى و د. وفاء محمد رفعت ، دار الوفا للطباعة والنشر . ولقد نص القانون الذى وضعه السلطان سليمان القانونى الذى ينبع من الشريعة الإسلامية على الشروط التى يجب أن تتوفر فى كل شخص يتولى منصب الصدارة العظمى (رئاسة الوزراء) أو منصب الوزارة على أن يكون الشخص مواظباً على أداء الصلاة فى أوقاتها . الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، د. عبد العزيز محمد الشناوى، نظام الإسلام، الحكم والدولة، محمد المبارك، دار الفكر، بيروت؛ النظريات السياسية الإسلامية، أ.د. محمد ضياء الدين الريس، ط٧، دار التراث القاهرة ١٩٧٩؛ الإسلام والخلافة فى العصر الحديث، نفس المؤلف ونفس دار النشر.

(٢) جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين الأتراك، زياد أبو غنيمة، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان الأردن؛ سلسلة دراسات عثمانية(١) العثمانيون فى التاريخ والحضارة، د. محمد حرب، المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى، القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

(٣) جوانب مضيئة، صفحة ٢٣.

(٤) نيكوبولى هى نيكوبول وهى فى شمال بلغاريا على حدود رومانيا، العثمانيون فى التاريخ والحضارة، صفحة ١٨.

(٥) نظام الإسلام، الحكم والدولة، محمد المبارك، دار افكر، حقوق الإنسان فى الإسلام، د. على عبد الواحد وافى، دار نهضة مصر، حرية الرأى فى الإسلام، د. محمد يوسف مصطفى ، مكتبة غريب، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع.

(٦) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ، الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادى وآخرون، دار الوفاء.

(٧) ففى أمريكا يفرقون بين الأبيض والأسود ، وفى روسيا ، وفى جنوب إفريقيا بل وفى البلاد العربية التفرقة العنصرية والعصبية والقبلية عادت كما كانت قبل الإسلام ، فهذا مصرى ، وهذا عراقى ، وهذا أردنى ، وهذا سعودى ، وهذا يمنى ، وكل من هذه الجنسيات يعتبر أجنبياً فى داخل البلاد التى تنسب نفسها إلى الإسلام . بل ان الصرب النصارى الأرثوذكس يقومون بإبادة وتشريد المسلمين فى البوسنة رغم أنهم شركاء لهم فى الوطن . بل أن الروس الصليبيين الأرثوذكس يقتلون الشاشان المسلمين رغم أنهم أصحاب البلاد الأصليين .

(٨) كان العبد فى نظر القانون الرومى إنساناً غير شخصى ، لا يملك حريته ولا أن يتزوج زواجا قانونياً ، وليس

له حقوق على نفسه أو على غيره ولو وقع الاعتداء على عرضه أونفسه ، ليس له أن يدافع عن نفسه أو عرضه قصة الحضارة ، وقيصر المسيح ، ول.ديورانت .

(٩) وهو أحد أمراء الروم الذين قدّر الله أن يكون من مشاهير قواد العثمانيين المجاهدين . وقد قام بقيادة الجيوش وفتح الله على يديه وردار وكوملجنة (تاريخ الدولة العلية العثمانية ، محمد فريد ، تحقيق د. احسان حقى ، دار النفائس ، ص : ١١٦، ص : ١٣٠ .

(١٠) وكان المسلمون قد حاصروها عشر سنوات . لله دركم يا آل عثمان ، عشر سنوات يحاصرون بورصة لتحريرها من قبضة الطاغوت وتحرير الإنسان وإقامة دين الله ..أى صبر وأى دأب وهبه الله لآل عثمان ، تاريخ الدولة العلية ، صفحة : ١٢٠ .

(١١) بن لازار الذى ولاه السلطان بايزيد خان الأول حكم البلاد يصرف أمورها حسب قوانينهم بشرط دفع الجزية . بل إن السلطان تزوج أخته أوليفيرا ، تاريخ الدولة العلية ، ص : ١٣٧ .

(١٢) وقد كلفه السلطان محمد الفاتح بفتح بلاد الصرب فأتم فتحها من سنة ٨٥٤-٨٦٥هـ/١٤٥٨-١٤٦٠م تاريخ الدولة العلية ، صفحة ١٦٨ .

(١٣) جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين الأتراك ، صفحة ٦٠ ، ٦١ .

(١٤) جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين الأتراك ، زياد أبو غنيمة ، دار الفرقان ، ص : ٦١، ٦٢ .

(١٥) جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين ، صفحة ٦٣ ، ٦٤ وهو يعتمد على كتاب مؤرخ تركى هو كمال باشا زاده .

(١٦) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، أ.د. محمد محمد حسين ، ج٢ ، صفحة ٧٦ ، دار النهضة العربية بيروت ؛ النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والنعمة، للشيخ مصطفى صبرى ؛ وقد قدم له وعلق عليه الأستاذ الدكتور مصطفى حلمى تحت عنوان الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية ، دار الدعوة بالإسكندرية .

(١٧) ومن مؤسسيها بطرس البستانى ، ونصيف اليازجى ؛ التبشير والاستعمار ، عمر فروخ .

(١٨) وكان هدفها نشر العلوم الغربية والدعاية لدول أوروبا ، أى أنها كانت تروض فكر الأمة لقبول الاحتلال الأوروبى الذى كان يوشك أن ينقض على الأمة . لم ينضم إليها خلال عامين من تأسيسها سوى خمسين عضواً كلهم من نصارى بلاد الشام .

(١٩) وكانت تضم مائة وخمسين عضوا من النصارى أمثال البستانى واليازجى ومنهم نصارى أظهروا الإسلام أمثال البستانى ، ومنهم الدروز ، ومنهم المسلمون ،وإن كانوا من أبناء البلاد إلا أن المحرك لهم كان من الخارج من الدول الأوربية.

اللقاء الثانى

ويدور حول الموضوعات التالية:

أ) تشكيل الهيئة الدينية للإفتاء برئاسة شيخ الإسلام. الحكام ينزلون على فتاوى شيخ الإسلام.

ب) انصياع السلاطين العثمانيين لأحكام الشريعة الإسلامية.

ج) من وصية عثمان لابنه أورخان.

د) دور الهيئة الإسلامية فى التربية والتعليم.

هـ) دور المسجد فى حياة الأمة.

و) دور الفتوحات العثمانية فى نشر الإسلام وتحقيق الأمن لنصارى أوروبا.

ز) السلطان أورخان يؤمن نصارى أوروبا على دينهم وأموالهم ودمائهم.

ح) الدولة العثمانية لم تكن تسمح لأى إنسان أن ينتهك حرمة شهر رمضان.

ط) الدولة العثمانية تيسر سبل الحج أمام المسلمين.

ى) الدولة العثمانية تربى الشباب المسلم على حب الجهاد والشهادة فى سبيل الله.

ك) شيخ الإسلام العثمانى يحكم للطائفة اليونانية النصرانية على السلطان سليم الأول.

الـوالـد : الحمد لله والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم أما بعد :

فهذا هو لقاؤنا الأسبوعى حول تاريخ الدولة العثمانية ، نلقى فيه الضوء على تشكيل الهيئة الدينية للإفتاء التى كان يرأسها شيخ الإسلام ومهمتها الاشراف على التعليم ودور الأوقاف الإسلامية وعلى المعلمين والمتعلمين ، وأيضاً عن التسامح العثمانى الذى عاش فى ظله أهل الكتاب آمنين على دينهم وأموالهم وأعراضهم وعن حرص العثمانيين على حرمة الدين الإسلامى ، وتأمين الطريق الى حج بيت الله الحرام . والآن هاتوا أسئلتكم ! .

محمـود : جزاك الله خيراً يا أبى وآمل أن يوفقك الله فى إلقاء الضوء على تشكيل الهيئة الدينية الإسلامية ومكانتها ووظيفتها فى الدولة العثمانية .

الـوالـد : الهيئة الدينية الإسلامية كانت تشكل مركز الإفتاء فى الدولة العثمانية، وكانت تتكون من القضاة بمختلف فئاتهم ودرجاتهم ، والمفتين ، وأساتذة الشريعة وأصول الدين ، وهيئات التدريس فى المدارس الإسلامية ، يعاونهم جهاز إدارى .

محمـود : ومن الذى كان يرأس الهيئة ؟ السلطان العثمانى ؟ .

الـوالـد : لا ، الذى كان يرأسها شيخ الإسلام (١) الذى كان يعتبر الرئيس الفعلى لهذه الهيئة ، وكان مركزه يتقدم على جميع موظفى الدولة العثمانية ، بل كان له فى التسلسل الإدارى للدولة مركز يمتاز عن مركز الصدر الأعظم (رئيس الوزراء).

محمود : لقد قرأت أنه كان يتبع شيخ الإسلام مكتب فنى يسمى فتوى خان أى دار الإفتاء (٢) فهل هذا صحيح ؟ .

الـوالـد : نعم ، وكان يعمل بها جماعة من كبار العلماء المتخصصين ، يبحثون بصفة تمهيدية المسائل التى كان شيخ الإسلام يطلب بحثها تمهيداً لإبداء الرأى وإصدار فتوى بشأنها ، وكان يرأس دار الإفتاء أحد العلماء

المرموقين ويطلق عليه « فتوى أمينى » أى أمين الإفتاء .

محمود : وما مدى خضوع الدولة لتوجيهات شيخ الإسلام ؟ .

الوالد : الدولة العثمانية ما كانت لتصدر توجيها أو تشريعاً قبل أن يعرض على شيخ الإسلام لمعرفة حكم الله فيه ، ومدى مطابقته للشريعة الإسلامية ، بل إن السلطان ما كان ليقدم على خوض حرب من الحروب قبل استطلاع حكم الله فيها .

محمود : لله دركم ياسلاطين الدولة العثمانية .

الوالد : بل كان من حق المفتى ، فى حالة انحراف السلطان العثمانى ، أو إخلاله بالبيعة التى فى رقبته والتى تقوم على كتاب الله وسنة رسوله ، أن يصدر فتوى بعزله ، ويقوم القادرون من أبناء الأمة بعزله فعلا .

أسامة : معنى ذلك أن الشريعة الإسلامية كانت لها المكانة الأولى ، أى أن كلمة الله كانت هى العليا حتى على السلطان .

الوالد : بل والحق أقول أيضاً : إن معظم السلاطين العثمانيين كانوا قمة فى الانصياع لأوامر الله ونظامه وشرعه ، وكانوا حريصين على معرفة حكم الإسلام فى أى عمل يقدمون على تنفيذه .

والدليل على ذلك ما ذكره الأستاذ الدكتور محمد حرب فى كتابه العثمانيون فى التاريخ والحضارة (سلسلة دراسات عثمانية (٣) «كانت حياة الأمير عثمان مؤسس الدولة العثمانية ، جهاداً بالحرب ، أما التخطيط الإدارى والتنفيذ فى الإمارة فقد كان موكلا إلى علماء الدين وكانوا يحيطون بالأمير ويتولون مسئولياتهم . ومات عثمان بينما كان ابنه أورخان يحاصر مدينة بورصة . وأوصى عثمان لابنه أورخان وعثمان على فراش الموت . سجلها المؤرخ العثمانى عاشق حلبى . والتزم بها أورخان وكل من جاء بعده من سلاطين العثمانيين . ونظراً للدلالة الحضارية والتاريخية لهذه الوصية ، فإنا نقدمها مترجمة إلى اللغة العربية يقول عثمان فى وصيته :

«يا بنى ! إياك أن تشتغل بشىء لم يأمر به الله رب العالمين . وإذا واجهتك فى الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلا .

يا بنى ! أحط من أطاعك بالإعزاز وانعم على الجنود ، ولا يغرنك الشيطان بجندك ومالك ، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة .

يا بنى ! إنك تعلم أن غايتنا هى إرضاء الله رب العالمين ، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق فتحدث مرضاة الله جل جلالة .

يا بنى ! لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت ، وهذا يا ولدى ما أنت أهل له» .

ولعل هذه الوصية كان النبراس الذى جعل العثمانيين يهتمون بالعلم وبالمؤسسات العلمية وبالجيش وبالمؤسسات العسكرية ، وبالعلماء واحترامهم ، وبالجهاد الذى أوصل فتوحاتهم إلى أقصى مكان وصلت إليه راية جيش مسلم وبالإدارة وبالحضارة .

وكانت أول تطبيقاتها فى عهد الموصى إليه -أورخان بن عثمان- فقد أقام أول جامعة إسلامية فى الدولة العثمانية ، وأقام أول جيش نظامى فى تاريخ العالم(٤) .

الأولاد : رحمة الله على السلاطين العثمانيين ونسأل الله ألا يحرم الأمة المسلمة من أمثال الصالحين منهم .

أسامة : ألم يكن من حق السلطان أن يقف فى وجه تطبيق شريعة الله ؟ فى وجه تنفيذ أمر من أوامر الله رب العالمين ؟ .

الوالد : غالباً ما كان يجرؤ أحد من السلاطين على فعل ذلك ، وإلا كان يعرض نفسه للعزل ، فالشريعة فوق السلطان نفسه .

محمود : ولكن نحن نعلم أن السلطان عبد المجيد الأول ١٢٥٥-١٢٧٨هـ (١٨٣٩ - ١٨٦١م)هو الذى أدخل الأنظمة الغربية وأحلها محل

الشريعة الإسلامية .

الـوالـد : هذا صحيح ، ولذلك أنا قلت : «غالبا »السلاطين ما كانوا يجرؤون على ذلك، ولذلك فإن عهد عبد المجيد يعتبر بداية السقوط للدولة العثمانية ، لأن الدولة العثمانية ما مكن الله لها فى الأرض ، وما استحقت السمع والطاعة من المسلمين إلا بتطبيقها للشريعة الإسلامية ، فلما تنكبت الطريق كان السقوط .

إيـمـان : ما أحوج الأنظمة فى العالم الإسلامى إلى أن تقتفى آثار الحكام الملتزمين من آل عثمان .

أسـامـة : وما أحوج أمثالنا لحكام يطبقون شريعة الله ومنهاجه ؟ .

محمـود : وهل حدث فعلا فى التاريخ ، وصدرت فتاوى بعزل أحد السلاطين العثمانيين ؟.

الـوالـد : نعم ، فقد صدرت فتوى بعزل السلطان سليم الثالث ١٢٠٤-١٢٢٢هـ (١٧٨٩-١٨٠٧) .

أسـامـة : ماهو السبب يا أبى ؟ .

الـوالـد : لأنه أعاد تنظيم الجيش وفق الأساليب الأوروبية .

أسـامـة : ولكن ، ماذا فى الاستفادة من أساليب العصر ، فكل الدول فى عالمنا المعاصر نظمت جيوشها وفقا للأساليب الأوروبية .

الـوالـد : إليك نص الفتوى : «إن كل سلطان يدخل أنظمة الفرنجة وعوائدهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحًا للملك» . إذن لقد عزل السلطان لأنه لم يقف عند حدّ الاستفادة من التقنية العسكرية بل إنه ألزم المجاهدين المسلمين على اتباع أنظمة الفرنجة وعوائدهم التى تتعارض مع عقيدة الأمة المسلمة . كما أصدر شيخ الإسلام فتوى بعزل السلطان عبد العزيز ١٢٧٨-١٢٩٣هـ (١٨٦١ - ١٨٧٦م) والسبب كما ثبت فى صلب الفتوى : «إسرافه والتجائه إلى عقد قروض أجنبية من

البيوت المالية فى باريس ولندن وعجزه عن تصريف شئون الدولة» (٥) .

أسـامـة : رحم الله علماء الإسلام وثبتهم على الحقّ .

محمـود : سمعت يا أبى أن الهيئة الإسلامية كانت تتحمل جانبا من مسئولية تعليم الأمة .

الـوالـد : نعم لقد كان لها نظام تعليمى دقيق ، وكانت المدارس تلحق بالمساجد وتنقسم الى ثلاثة مراحل :

* المدارس الابتدائية : ويطلق عليها المكاتب ، وعرفت فى القرن السادس عشر باسم أماكن القراءة وكانت تعلم القراءة والكتابة باللغة التركية واللغة العربية وبعض سور من القرآن الكريم .

* المدارس المتوسطة : وكان يدرس فيها عدة مقررات فى النحو والبلاغة والمنطق والهندسة وفقه اللغة .

* المدارس العالية : وتدرس فيها الشريعة والقانون ، ويتعمق الطلبة فى دراسة العلوم القرآنية والشريعة الإسلامية ؛ كالحديث والفقه وأصول الدين ، وكان الطالب الناجح يمنح لقب ملازم .

ولم تكن هناك سنوات محددة لمراحل الدراسة ، وكان المعيار فى تحديد سنوات الدراسة هو الاستعداد العقلى للطالب وقابليته للدراسة .

ويقول المؤرخ الأمريكى ليبيير : إنّ النظام التعليمى فى مدارس الهيئة الإسلامية كان يفوق أى نظام تعليمى آخر فى دول أوروبا فى ذلك الوقت (٦) .

محمـود : ما شاء الله ، أى أن علوم اللغة والقرآن كانت تشكل قاعدة التعليم الأساسى ومعنى ذلك أيضاً أن اللغة العربية كانت تدرس جنباً الى جنب اللغة التركية .

أسـامـة : ما أحوج أمتنا الى أن تتحرّى هذا النوع من التعليم ، وهذا النظام فى دور علمنا ، خاصة وأن أمتنا تعيش حالة من التخبط فى مجال التعليم ،

بعد أن تسولت أنظمة تعليمها من الشرق والغرب ، وتنكرت لأنظمتها الإسلامية .

أحمـد : فحسبنا أن هذا النظام التعليمى تربى عليه أمة ظلت تقود العالم الإسلامى من نصر الى نصر على مدار ستة قرون أو يزيد ويعمل الأعداء لها ألف حساب .

الوالد : تماما ، فالدولة فى هذا المجال ، مجال العلم والأخلاق والمعاملات والعبادات كانت قمة فى كل شىء ، وبمجرد انهيار نظامها سقط العالم الإسلامى فى قبضة أعدائه ، وحرم من العيش فى ظل تطبيق شريعة الإسلام وتسلط الأعداء على دياره وثرواته ومقدساته .

الأولاد : لا حول ولا قوة الا بالله .

إيمان : لقد ذكرت يا أبى أن المدارس كانت تلحق بالمساجد ، وهذا يؤكد الدور العظيم الذى يمكن أن يؤديه المسجد فى حياة الأمة ، فهل لك - بارك الله فيك- أن تلقى لنا بعض الضوء على دور المسجد فى حياة الأمة ؟.

الوالد : نعم ، كانت المساجد على عهد الدولة العثمانية منشآت خيرية تضم مدرسة ومكتبة تحفل بكنوز من التراث الفكرى الإسلامى ، سواء باللغة العربية أو التركية أو الفارسية وكانت المدرسة أو المعهد الملحق بالمسجد تتسع لسكنى الأساتذة والطلاب ، كما كانت تضم هذه المبانى حماماً ومطبخاً وداراً للعجزة وكبار السّن ومستشفى وفندقاً صغيراً ينزل به الغرباء ويطلق عليه الخان ، وكان المسجد الكبير وما يلحق به من هذه المؤسسات يبدو كأنه مدينة مستقلة للأعمال الخيرية العامة ، مثال مساجد محمد الفاتح وسليمان وأحمد الأول فى إستانبول . وكان ينفق على هذه المساجد وتوابعها والموظفين الذين يعملون فى هذه المنشآت من إيراد الأراضى الزراعية الموقوفة على الهيئة الإسلامية .

محمود : الله أكبر ، الله أكبر ، مسجد يلحق به دور علم ومدرسة وسكن للطلاب والأساتذة ودار للعجزة ومستشفى وفندق ، وكل ذلك مجهز

وينفق عليه من الأموال الموقوفة من الصالحين على أعمال البر .

الـوالـد : نعم يا محمود ، والأهم من ذلك أن طالب العلم وأن المريض والإنسان وقد برحت به الشيخوخة الكل يرتبط بالله خمس مرات فى اليوم والليلة فى هذا المكان حينما يرفع الآذان فما أعظم أن تمضى الحياة مرتبطة بالله رب العالمين فى المدرسة وفى العمل وفى السفر وفى المستشفى .

أسـامـة : هذه هى الدولة العثمانية التى تتهمها أمتنا ، أمة الغثاء ، بأنها فرضت الجهل والتخلف على العالم الإسلامى ، فما أجهل المتهمين وما أحقدهم .

محمـود : لو أذنت لى يا أبى أن أستفسر عن مسألة أخرى ؛ لقد ذكرت لنا فى لقاء سابق أن الدولة العثمانية كانت تهدف من وراء إحياء روح الجهاد إزالة العقبات التى تحول بين الناس وبين إعتناق الإسلام ؛ فهل دخل أهالى البلاد التى فتحها العثمانيون الإسلام بعد أن خضدت شوكة الذين كانوا يحولون بينهم وبين دين الإسلام ؟

الـوالـد : نعم لقد اقترنت الفتوح الإسلامية العثمانية سواء فى الأناضول أو فى أوروبا (٧) بنشر الإسلام ، وقد انتشر الإسلام انتشاراً سريعاً وواسعاً فى بعض الأقاليم وانتشر انتشارا وئيداً فى أقاليم أوروبية أخرى ، وغدت العواصم التى اتخذتها الدولة العثمانية تباعا وهى : قونية ، وبروسة ، وأدرنة ، وإستانبول مدنا عثمانية إسلامية ومراكز للدراسات الإسلامية والحياة الإسلامية ، وتنافس السلاطين وزوجاتهم وسائر أفراد الأسرة العثمانية الحاكمة ، وأثرياء العثمانيين على إقامة المساجد الرائعة والمعاهد والمدارس لتدريس علوم الشريعة وأصول الدين وما يتصل بها من دراسات إسلامية عليا ، وكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم ، كما أقاموا العديد من التكايا والأسبلة والخنقاوات والحمامات العامة ، وأوقفوا الكثير من الأوقاف الدارة للإنفاق من ريعها على تلك المؤسسات الخيرية (٨) .

محمود : رحم الله سلاطين آل عثمان ، ورحم الله أمتنا التى كانت تدرك أن

الدعوة إلى الله واجبة ، وأن إحياء روح الجهاد فريضة لنشر الإسلام وإقامة دين الله فى الأرض **﴿حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾** (الأنفال : ٣٩).

إيمـــان : وهذا ما يجب أن تدركه أمة الإسلام الآن وتسعى إلى تحقيقه وإلا تعتبر مقصرة فى دينها وفى حق نفسها .

أسـامـة : ولكن هل اعتنق أبناء أوروبا الإسلام ؟ .

الـوالـد : نعم ، جزء ضخم من أبناء أوروبا اعتنق الإسلام ، والعجيب أن أبناء «أوروبا كانوا يطلقون على كل من يدخل الإسلام من أبناء أوروبا أنه قد غدا عثمـانياً وهكذا أصبحت عبارة الدولة العثمانية مرتبطة بالدين الإسلامى بصورة وثقى».

ان الدولة العثمانية كانت ملاذاً يستهوى أفئدة المضطهدين والمعذبين فى الأرض الأوروبية . يلتمسون فى رحابها الأمن والملاذ والتسامح ، وقد كتب «مارثن لوثر» فى كتيب نشره عام (٩٤٨هـ/ ١٥٤١م) : إن الفقراء المسيحيين الذين يظلمهم الأمراء وأصحاب الأراضى يفضلون أن يعيشوا تحت حكم الأتراك (يقصد المسلمين)ولا يعيشون فى كنف حكام مسيحيين يمارسون أساليب ظالمة فى حكم الفقراء (٩) .

ولعل هذا يفسر السبب فى سرعة انتشار الإسلام فى أوروبا ، لأن الشعب وجد الأمن والرحمـة والعدالة والطمأنينة فى ظل الحكم الإسلامى ، ومـعنى ذلك أن الذين أسلمـوا من أبناء أوروبا لم يسلمـوا خـوفاً من السيف ، وبمعنى آخر أن العثمانيين لم يجبروا أحداً من أبناء أوروبا على اعتناق الإسلام .

نكرر يا أبناءنا ، الدولة العثمانية كانت دولة إسلامية ، أى مقيدة بقيود المنهج والشريعة الإسلامية ، فالشريعة الإسلامية لا تقهر أحداً على اعتناق الإسلام ، والدليل قول الله تعالى **﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد**

استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ (البقرة : ٢٥٦) .

والجهاد قد شرع لإزالة العقبات التى تقف بين الناس وبين اعتناق الدين الذى يريدون ، أى أنه لم يشرع بهدف إجبار الناس على اعتناق الإسلام.

أحمد : وهذا هو مدلول كلمة المجاهد (ربعى بن عامر) : إنّ الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور المبادئ والأديان الى عدل الإسلام .

الوالد : نعم وهذا هو عين ما فعله السلاطين العثمانيون ، يذكر المؤرخ التركى أحمد رفيق فى كتابه «التاريخ العمومى الكبير» : «إنّ أهالى المدن البيزنطية المفتوحة لم يكونوا يعتبرون ذلك إلا تخليصاً لهم وإنقاذاً من ظلم الدولة البيزنطية» .

مثال ذلك : ما رواه نفس المؤرخ ، عندما فتح الله عزوجل على أورخان بن عثمان مدن مالتيه ، وأزميت وأزنيق ، عامل أهالى هذه المدن النصارى معاملة طيبة وأقام العدل بينهم فأسلم الكثيرون منهم (١٠) .

أسامة : وماذا فعل السلطان أورخان بمن بقى على دينه من الشعوب البيزنطية ؟.

الوالد : لقد أمّنهم على دينهم (١١) ، وأنفسهم وأموالهم فى مقابل مبلغ ضئيل من المال (الجزية) فى مقابل الدفاع عنهم وحمايتهم وديارهم وأملاكهم نظراً لأنهم كانوا لا يجاهدون أعداء الأمة وأعداءهم مع المسلمين .

كما سمح لمن أراد منهم الهجرة بالهجرة الى أى مكان يريد وسمح له فى نفس الوقت ببيع أملاكه وأمواله أو أخذها معه .

محمود : رحم الله أورخان بن عثمان ، ولا عجب فى ذلك لأن الحاكم المسلم وإخوانه كانوا نتاج هذا الإسلام العظيم الذى كان يوجه تصرفاتهم طبقا

لمنهج الله وشريعته .

الـوالـد : نعم يا أبنائى ، هذا هو النموذج الإسلامى العظيم فى معاملة الشعوب المغلوبة، فأين هذا مما فعله اليهود على أرض فلسطين ؟ أو ما فعله الصينيون والروس فى تركستان ؟ وأين هذا مما فعله الفرنسيون والإيطاليون فى مصر وشمال إفريقيا؟ وأين هذا مما فعله الأسبان؟ وأين هذا مما فعله الأوروبيون أو الأمريكان فى العراق وليبيا ومعظم بلاد الله؟ شردوا وقتلوا واغتصبوا الأرض والديار ، بل والإنسان وكل شىء ، بل وأين ذلك مما يحدث الآن من مطاردة للإسلام والمسلمين فى الفلبين وأرتيريا والصومال ونيجيريا وجنوب السودان بل وما يحدث فى بلغاريا وألبانيا وغيرها؟ أين ذلك مما يفعله الصرب الأرثوذكس والكروات الكاثوليك بإخواننا وأخواتنا وأطفالنا وعلمائنا فى البوسنة والهرسك؟ وما يفعله الروس بإخواننا فى الشيشان .

إيـمـان : نخشى أن يتهم الناس المؤرخ أحمد رفيق بأنه منحاز للدولة العثمانية لأنّه تركى ، فصور العثمانيين ومنهم أورخان بهذه الصورة المشرفة ، ولم يكونوا كذلك .

الـوالـد : هناك يا إيمان مصادر كتبها غير مسلمين يؤكدون ما ذهب إليه أحمد رفيق عن الدولة العثمانية ، فالموسوعة (١٢) اليونانية Hegalia Elliniki Engiklopedia

تذكر أن أورخان بن عثمان (٧٢٦ - ٧٦٢هـ) بعد أن استسلمت له حامية مدينة أزنيق البيزنطية أعطى الأمان لجميع أهلها من الروم البيزنطيين على حياتهم ، وأموالهم وأعراضهم وممتلكاتهم ، وأن النصارى البيزنطيين آثروا البقاء فى مدينتهم وأملاكهم تحت سيادة العثمانيين عندما خيرهم أورخان بين البقاء فيها أو أخذ ما يريدون من أموالهم ومتاعهم والذهاب الى أى منطقة بيزنطية أخرى .

كما أن كاتبة أمريكية تدعى «مارى ملزباتريك» ذكرت «أن السلطان

محمد الفاتح (٨٥٥هـ - ٨٨٦هـ) قد أظهر تسامحا عظيما مع النصارى ، وكان لكل مله فى ذلك الحين رئيس دينى لا يخاطب غير حكومة السلطان مباشرة ، ولكل ملة من هذه الملل مدارسها الخاصة وأماكن للعبادة ، وأديرة ، كما أنه لا يتدخل فى ماليتها ، وكانت تترك لهم الحرية فى تكلم اللغة التى يريدونها (١٣) .

محمود : ما أشبه تصرف محمد الفاتح مع أهل الكتاب بتصرف عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- عندما فتح الله على المسلمين بيت المقدس ، فأمن النصارى على أنفسهم ودينهم وبيعهم وأموالهم .

الوالد : وهناك أيضا شهادة مؤرخ غربى هو «بتلر» يقول فيها :

«إن الديانة الإسلامية نفسها قد وجدت سبيلها الى قلوب نسبة كبيرة من أهالى البلاد المفتوحة ، بدليل ما أجمعت عليه الوثائق من تسامح العرب (المسلمين) المطلق مع المسيحيين واليهود على حد سواء ، وهو تسامح لم يحظوا به فى ظل حكامهم السابقين (١٤) .

أسامة : عرفنا أن الدولة العثمانية كانت دولة إسلامية وهناك دول فى عالمنا المعاصر تزعم أنها دول إسلامية ولكنها لا تطبق شريعة الله وتعطل الحدود وتحرم ما أحل الله وتحل ما حرم الله ، ورغم ذلك تزعم أنها إسلامية ، فهل الدولة العثمانية كانت كذلك ، أى دولة شعارات ؟ .

الوالد : حاشا لله ، فدراسة تاريخ الدولة العثمانية تؤكد حرص الدولة على تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية وعلى المحافظة على التقاليد الإسلامية .

من ناحية أخرى ، فالدولة كانت تؤكد فى شتى المناسبات أنها تلتزم التزاماً دقيقاً بمبادئ الشرع ، ونذكر هنا على سبيل المثال أنها حين أصدرت قانون نامة الذى وضعه السلطان سليمان ٩٢٧-٩٧٤هـ (١٥٢٠-١٥٦٦م) توجت هذا القانون بجملة معبرة وردت فى صدره ، (قانوننا مى سلطانى كى شريعى شريفى موافقاتى محرر أولوب) أى : «أن القانون نامة السلطانى الذى يتفق مع الشريعة الشريفة (١٥) .

ونذكر على سبيل المثال أيضاً أن السلطات العثمانية لم تكن تسمح لأحد بانتهاك حرمة شهر رمضان ، ولذلك لم يكن يجرؤ أحد مهما كان مركزه وسواء كان مسلماً أو غير مسلم ، على أن يأكل أو يشرب فى مكان عام أثناء النهار طوال شهر رمضان ، كان ضرب هذا الشخص أو تجريسه من الإجراءات الفورية الرادعة التى تتخذ ضده ، وكان التجريس عقوبة مقررة ومعترفاً بها فكانوا يحلقون نصف لحية المذنب ونصف شاربه ، ثم يضعونه على ظهر حمار ويعممون هذا الشخص بمصارين ذبيحة (أى بأمعائها) ، ويضعون على كتفيه كرشها أو جلدها ، ويطوفون به على هذه الصورة المنكرة الشوارع والطرقات ورجال أشداء يصفعونه ويصرخون ليجتمع حوله مزيد من الناس (وكان يطلق على هذه العقوبة التشهير) وكان لابد أن يعقب إحدى هاتين العقوبتين عقوبة أخرى هى الزج فى الترسيم أى الاعتقال .

أسامة : ما أحوجنا فى هذه الأيام إلى أن نتأسى بهذه الدولة فى حرصها على دين الله، وتأديب الخارجين عليه ، وما أحوجنا إلى الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ؛ ليأخذوا على يد المعطلين لدين الله ونظامه وشرعه ، والمنتكين لحرماته .

محمود : نلاحظ فى أيامنا هذه صدا متعمداً عن زيارة بيت الله العتيق للحج أو العمرة سواء برفع أسعار التذاكر ، أو بتعقيد الإجراءات ، أو بزيادة الرسوم أو بتحديد سن معينة للحج ، أو بمنع الحج إلا بعد سنوات معينة ، فهل كانت الدولة العثمانية كذلك ؟

الوالد : حاشا لله ... لقد نظرت الدولة إلى الحج على أنه الركن الخامس من أركان الدين الإسلامى ، وأن واجب ولى الأمر تيسير الحج أمام الراغبين فى أداء هذه الفريضة ، فأنشأت الآبار على طول الطرق المؤدية إلى الحجاز وأقامت فى البادية حصوناً لحراسة الآبار وشجعت على تشييد الخانات (الفنادق) ، وأقامت المخافر ، وكانت تتحرك كل سنة أربعة قوافل حج رئيسية من كافة أنحاء الدولة فى مواعيد محددة وفق نظام

رتيب وفى رفقة قوة عسكرية يقودها أحد العسكريين يُسمى سردار الحج : قافلة الحج الشامى وقافلة الحج المصرى ، وقافلة الحج العراقى وقافلة الحج اليمنى (١٦) .

محمود : من المعروف أن حركة الجهاد الإسلامى استمرت بقيادة آل عثمان حوالى ستة قرون ، وذلك دليل على أنه كان هنالك نظام جيد ومتين لتربية المسلم المجاهد، فهل لك أن تلقى ضوءاً على هذا النظام ؟

الـوالـد : نعم كان يتم تربية الشباب منذ نعومة أظفارهم على مفهوم الإسلام الصحيح فكانوا يتلقون قدراً من العلوم الشرعية واللغوية منذ نعومة أظفارهم بداية بعلوم اللغة والقرآن الكريم تجويداً وحفظاً ، وكان يقوم نظام التربية على غرس أسس الإيمان الصحيح بالله رب العالمين فى قلوبهم ، وتربيتهم على استشعار العزّة الإسلامية ، وأن الولاء لابد وأن يكون لله ولرسوله وللمؤمنين ، والبراءة من أعداء الله وأعداء رسوله والمؤمنين كان نظام التربية يقوم على مقاومة الترف ، لأن الأمة المترفة لا يمكن أن تكون أمة مجاهدة ، وهذا هو الذى تسميه كتب التاريخ : نتيجة عدم الفقه بالتصوف ، وهو لم يكن كذلك ، إنّما كان زهداً اقتداء برسول الله محمد ﷺ والدليل على ذلك أن هؤلاء الذين أطلقت عليهم كتب التاريخ اسم المتصوفة كانوا يقومون بواجب الدعوة إلى الله، وكانوا يقومون بمجاهدة الكافرين والاستشهاد فى سبيل الله . وكان نظام تربيتهم يقوم على احياء روح الجهاد الإسلامى على اعتبار أنها فريضة ماضية إلى يوم القيامة .

أحمـد : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، هل هنالك أحد زار هؤلاء الفتيان وشاهدهم.

الـوالـد : نعم الرحالة ابن بطوطة (١٧) ، وقد دون ذلك فى كتابه «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» (١٨) .

« زار بن بطوطة بلاد الأناضول فى أثناء حكم السلطان أورخان (٧٢٧

- ٧٦٢هـ) (١٣٢٦-١٣٦٠م) ، وقابله وقال عنه : إنه أكبر ملوك التركمان وأكثرهم مالا ، وبلاداً وعسكراً ، له من الحصون ما يقرب من مائة حصن ، وهو فى أكثر أوقاته يتفقدها ، ويقيم بكل حصن أياماً لإصلاح شئونه ».

وقد خالط ابن بطوطة الإخوان الأتراك ووقف على نظمهم وزواياهم وأسلوبهم فى الحياة وتحدث عن الآخية الفتيان وقال : إنهم كانوا مثلا فريداً فى الشهامة والكرم وقضاء الحوائج والوقوف فى وجه الظلم والاقتصاص من الظلمة ، ومن لحق بهم من أهل الشر ، وكانوا يحملون معهم الأسلحة فى حلهم وترحالهم (١٩) .

أسامة : سامحنى يا والدى موضوع آخر لقد قرأت أن السلطان سليم الأول (٩١٨ - ٩٢٧ هـ) لم يكن متسامحاً مع أهل الكتاب وأنه قد استصدر فتوى من شيخ الإسلام تبيح له أن يعرض على أهل الكتاب الإسلام أو السيف (٢٠) .

الوالد : لقد كان السلطان سليم الأول قمة فى التسامح (٢١) مع أهل الكتاب وهو فى هذا لم يكن متفضلا عليهم وإنما هو كان منفذاً لشرع الله الذى فرض على المسلمين أن يبروا أهل الكتاب ويقسطوا إليهم ، يقول ربنا رب العالمين : ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين . ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون**﴾ (الممتحنة : ٨، ٩) .

ولقد عاصر السلطان سليم الهجمة الصليبية الشرسة على الأندلس ، وحملات الإبادة والتهجير لملايين المسلمين لرفضهم التنصر ، ولاحظ أن أعداد النصارى بكافة طوائفهم واليهود المهاجرين من دول أخرى مثل أوروبا قد ازدادت داخل ولايات الدولة العثمانية بصورة خشى معها

السلطان سليم أن يتآمروا على الدولة وينزلوا بها الأضرار أثناء انشغالهم بالجهاد ولهذا قيل : إنه خيرهم بين الإسلام وبين ترك أراضى الدولة العثمانية الى أى بلد من بلاد أوروبا ، وقيل : إنه خيرهم بين الإسلام وبين القتل ، وذلك حرصاً على أمن الدولة الإسلامية ، ويقال : إنه استصدر فتوى من شيخ الإسلام يجيز له هذا ولكن -وهذه مسألة لابد من أن ننتبه إليها- حينما تَظَلَّم أهلُ الكتاب إلى شيخ الإسلام من قرار السلطان سليم ، قام بفحص المسألة ، وأصدر فتوى بأنه لا يجوز للسلطان أن يخيرهم بين الإسلام أو الطرد من أراضى الدولة العثمانية ولا يجوز أن يخيرهم بين الإسلام أو القتل ، طالما أنهم -أى أهل الكتاب- لا يحاربون الدولة ولا يتآمرون عليها ، وطالما يؤدون الجزية ، بل وأثبت فى صلب الفتوى أن الدولة العثمانية يجب أن تتكفل بالمحافظة على أرواحهم وممتلكاتهم طالما كان سلوكهم العام لا تشوبه شائبة ، وولاؤهم للدولة ملحوظاً وتصرفاتهم سليمة ، وأخذ النصارى (٢٢) الفتوى وعلقوها على مقر إقامتهم ، وقد أذعن السلطان سليم لفتوى شيخ الإسلام .. ونزل على حكم الله ... وأمن أهل الكتاب النصارى وغيرهم على دينهم وأموالهم وأنفسهم .

أسامة : لله دركم يا آل عثمان !!!

محمود : بل قل : يا لعظمة الإسلام !!!

إيمان : بل قولوا : يا لرحمة الله الذى أرسل محمداً رحمة للعالمين وكما قال الله سبحانه وتعالى : **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾** (الأنبياء : ١٠٧).

أحمد : ولكن يا أبى ألا ترى معى أن السلطان سليم الأول قد كان يقصد من وراء هذا التصرف -إن كان الخبر صحيحاً- أن يضغط على أبناء أوربا عسى أن يخففوا من هجمتهم على الإسلام والمسلمين فى الأندلس ، بعدما لاحظ حرب الإبادة المعلنة على المسلمين هناك ... وقد قال

كاتب أمريكي : إن السلطان سليماً في اتخاذه لهذا القرار كان متأثراً بالمذابح التى أقدمت عليها السلطات الأسبانية حين رفض مسلمو الأندلس اعتناق الدين المسيحى .

الأبناء : ما شاء الله عليك يا أحمد لعل هذا الذى ذكرت كان سبباً لهذا التصرف ، ولكن شيخ الإسلام لم يوافق فى جميع الأحوال على هذا التصرف من قبل السلطان سليم الأول رحمه الله .

أسامة : هذا نموذج يجب أن ينشر على الملأ ، ويبين للطلاب فى دور العلم وللبشرية كلها ، لكى تعرف سماحة الإسلام ، لكى تعرف عظمة هذا الدين .

إيمان : ولكي يعرف الناس أيضاً كيف أبادت أوربا الصليبية ملايين المسلمين فى الأندلس بعد ثمانية قرون من الإقامة فيها ، لكى يتبين الناس أن الإسلام برىء من الضعف والتطرف الذى يوصم به ، ولكى يدرك الناس أن الصليبية العالمية واليهودية العالمية والشيوعية العالمية وقوى الإلحاد العالمى التى اغتصبت القارات ، ونهبت الثروات ، وأبادت شعوباً بأكملها ... هم المتطرفون .

أسامة : بقيت مسألة بسيطة يا أبى ... ما هو نظام الملل الذى كان يخضع له رعايا الدولة العثمانية من أهل الكتاب .

الوالد : هذا نظام وضعته الدولة العثمانية لأهل الكتاب ، لرعاية شئونهم الدينية والدنيوية والأخروية ، يفصل فى قضاياهم الشخصية وغيرها ، لأن الدولة لم تكن تتدخل فى شئونهم ، إلا إذا احتكموا هم إليها ، وطبقاً لهذا النظام كان لكل طائفة أن تختار مسئولا عن شئونها الطائفية ، طبقاً لأنظمتهم وكان لهذا الشخص المسئول حق الاتصال بالباب العالى (السلطان) مباشرة .

وللحديث بقية . سبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك.

أسئلة حول اللقاء الثانى

(١) اذكر أربع آيات قرآنية (مَنسوبة إلى سورها) تفرض على الحكام الحكم بما أنزل الله؟ مع الاستسلام لشرع الله؟

(٢) اذكر ثلاث دروس مستفادة من وصية عثمان لابنه أورخان؟ مع التعريف بكل منهما فى ستة أسطر؟

(٣) ما هو الدور الذى يمكن أن يؤديه المسجد فى حياة الأمة؟

(٤) لماذا حرص العثمانيون على مواصلة الفتوحات الإسلامية فى أوروبا؟

(٥) ما هو الدليل على أن الدولة العثمانية كانت حريصة على حماية الدين وتيسير سبل القيام بالعبادات؟

مصادر ومراجع اللقاء الثانى

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها أ.د. عبد العزيز محمد الشناوى ، ج١ ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٠م، صفحة ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

(٢) المرجع السابق ، ج١ ، صفحة ٤١٠ – ٤١١ .

(٣) المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، صفحة ١٢، ١٣.

(٤) هذه الوصية مأخوذة نصاً عن: «العثمانيون فى التاريخ والحضارة» صفحة ١٢، ١٣.

(٥) الدولة العثمانية ، جـ ١ ، صفحة ٤١٣ ؛ هكذا كان علماء الإسلام حريصين على استقلال الأمة . فما أحوج الأمة إلى علماء على هذا النسق تُحذر من خطر القروض الأجنبية ، تبذل النصيحة والفتوى إبتغاء مرضات الله ، وما أحوجنا إلى أمراء ينزلون عند حكم الله .

(٦) الدولة العثمانية ، ج١ ، صفحة ٤٤٧ .

(٧) الدولة العثمانية ، ج١ ، صفحة ١٠ – ١١ .

(٨) نلاحظ هنا حرص المسلمين أن يَقُوا الدارس ذل السؤال ، وحرصهم على ألا تمتد يد عالم أو مدرس فى الدولة العثمانية ليأخذ راتبا أو مصروفا منها ، فيصبح عبدا لها وحينذاك يخجل من أن يجهر بكلمة الحق ويتردد فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى مواجهة السلطان .

(٩) الدولة العثمانية ، ج١ ، صفحة ١٤ ، ١٥ .

(١٠) فى التاريخ العمومى الكبير، نقلاً عن صفحات مضيئة فى تاريخ العثمانيين زياد أبو غنيمة، صفحة ٧٩.

(١١) نقلاً عن صفحات مضيئة ، صفحة ٧٩ .

(١٢)صفحة ٢٧٦ من المجلد الثامن المطبوعة فى أثينا سنة ١٩٣٢م ، نقلاً عن جوانب مضيئة ، صفحة ٨٠ .

(١٣) جوانب مضيئة صفحة ٨٠ – ٨١ نقلاً عن سلاطين بنى عثمان للكاتبة وترجمة حنا غصن وكامل مروة وكامل صمؤيل مسيحة، بيروت ١٩٣٣.

(١٤) المرجع السابق .

«لم ينس أهل بيزنطيه – أى أهل القسطنطينية – بعد الأعمال الوحشية التى ارتكبها أتباع الكنيسة الكاثوليكية عام ١٢٠٤ فى استانبول عندما غزوها» .

نوتاراس يقول : أفضل رؤية العمامة التركية فى القسطنطينية على رؤية القبعة اللاتينية ، أى الكاثوليكية (العثمانيون فى التاريخ والحضارة) ، محمد حرب ص : ٢٢) .

يقول المؤرخ البيزنطى هالكو نديلاس عن مراد الأول : قام بأعمال هامة كثيرة . دخل ٣٧ معركة سواء فى الأناضول أو فى البلقان ، وخرج منها جميعاً ظافراً وكان يعامل رعيته معاملة شفوقة دون نظر لفروق العرق والدين» المرجع السابق صفحة ١٥ .

(١٥) الدولة العثمانية ، ج١ ، صفحة ٥٦ .

(١٦) الدولة العثمانية : ج١ ، صفحة ٥٧ -٥٩ .

(١٧) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم وكنيته أبو عبد الله ، ولقبه شمس الدين وشهرته ابن بطوطة. ولد فى طنجة ١٧ رجب ٧٠٣هـ / ٢٤ فبراير ١٣٠٤م . وتوفى سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م . أمضى ثلاثين سنة سائحاً فى الأرض وبعدها حط رحاله فى فاس حيث طلب منه السلطان أبو عنان من ملوك بنى مرين أن يجلس ويحدث الناس عن مشاهداته فى البلاد التى زارها وأمر بكتابتها . وقد تم تبييض المسودات وأطلق عليها اسم «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» ومن الكتب التى نشرت عن هذه الرحلة : رحلة ابن بطوطة من طنجة إلى الصين والأندلس وأفريقيا ، للأستاذ محمود الشرقاوى ، الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٨ (الدولة العثمانية ، ج١ ، صفحة ٦٠ ، ٦١ هوامش) .

(١٨) وقد نشر بحث عن تعليم د. محمد محمود الصياد تحت عنوان رحلة ابن بطوطة ، نشر فى مجلة تراث الإنسانية ، القاهرة ، المجلد الثالث العدد الثانى فبراير ١٩٦٥ ، صفحة ١٠١ - ١١٦.

(١٩) الدولة العثمانية ، ج١ ، صفحة ٦١ .

(٢٠) جوانب مضيئة صفحة ٧٦-٧٧ .

(٢١) ويذكر التاريخ أن السلطان أورخان حينما فتح بورصة لم يتعرض لأهلها بسوء (تاريخ الدولة العلية ، صفحة ١٢٠ .

(٢٢) وأرسلت نص الفتوى من شيخ الإسلام على الزنبيلى إلى بطريرك اليونان فى استانبول الذى اعتبرها ميثاقاً أو مستنداً يدرأ عن رعايا الدولة غير المسلمين أى اضطهاد دينى قد يتعرضون له ؛ الدولة العثمانية ، ج١ ، صفحة ٤١٥ .

(٢٣) جوانب مضيئة ، صفحة ٧٦-٧٧ .

(٢٤) جوانب مضيئة ، صفحة ٨٥ .

اللقاء الثالث

ويدور حول المو ضوعات التالية:

أ) المؤامرة الأوربية لإسقاط الخلافة الإسلامية وتمزيق العالم الإسلامى.

(ب) قرارات مؤتمر كامبل بانرمان (١٣٢٥هـ/١٩٠٧م)

(ج) التنظيمات السرية التى قامت أوروبا بتشكيلها داخل العالم الإسلامى لضرب الخلافة العثمانية (تنظيم تركيا الفتاة والاتحاد والترقى)

(د) عداء أوروبا النصرانية للإسلام وأهله.

(هـ) دور البعثات التنصيرية والجمعيات الأدبية والعلمية فى هدم الخلافة.

(و) السلطان عبد الحميد الثانى ينفذ خط سكة حديد المدينة المنورة بلاد الشام (من الذى هدمه ؟).

الوالد : الحمد لله والصلاة على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد .

نواصل اليوم يا أبنائى حديثنا عن تاريخ الدولة العثمانية ، آمل أن تدونوا ملاحظاتكم والمصادر والمراجع للرجوع إليها عند اللزوم ، على ألا تنسوا أن هذا العلم لا بد وأن ينبنى عليه عمل «اعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن تؤجروا بعلمكم حتى تعملوا» ؛ تعملوا على إقامة هذا الدين نظاماً حياتياً شاملاً كما أمر ربنا ﴿ **أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ (الشورى: ١٣)

وأن تُعدُّوا أمتكم لمواجهة الهجمة الشرسة على الإسلام ودياره وثرواته لأن الله علمنا ﴿ **وأعدوا لهم ما إستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾ (الأنفال : ١٠) . ومن الاعداد بذل العلم لمن لا يعلم »

محمود : جزاك الله خيراً يا أبى يقول ربنا : ﴿ **وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين** ﴾ (الأنعام : ٥٥) فالآن نريد منك يا والدى أن تحدثنا عن مؤامرة أبناء أوروبا لإسقاط الخلافة العثمانية بعد ستة قرون من قيامها (٦٩٩-١٣٢٦هـ)

الوالد : لنفتح أولا باب الإستفسارات عن هذه المسألة .

أسامة : الإستفسار الأول يا والدى بارك الله فيك، لماذا عملت أوروبا مجتمعة على إسقاط الدولة العثمانية .

الوالد : لأن الخلافة العثمانية كانت تشكل السياج الحامى بعد الله للعالم الإسلامى كما أنها وقفت حاجزاً منيعاً يحول بين أعداء الإسلام(أوروبا) وبين محاولتهم تمزيق العالم الإسلامى واغتصاب ثرواته وخيراته ، بعد رد أهله كفاراً .

إيمان : ومن هنا نفهم لماذا كان شعار الحروب الصليبية البرتغالية والأسبانية التى

غزت العالم الإسلامى تحت شعار الاكتشافات الجغرافية الصليب أو المدفع .

الـوالـد : تماما يا إيمان ولكن يلاحظ أيضاً ، ان قوة أخرى خفية ، بدأت تسفر عن وجهها ، وتدخل حلبة الصراع علانية الى جانب القوى الصليبية والملحدة ، ألا وهى قوة الاقليات اليهودية فى العالم(٢) ، واليهود ألد أعداء الأمة المسلمة يقول رب العالمين ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا**﴾ (٣)

محمود : ولكن حرب اليهود ضد الإسلام وأهله حرب تضرب بجذورها فى أعماق الزمن فمن المعروف أنهم تآمروا مع مشركى العرب للقضاء على الدولة الإسلامية الوليدة التى كان على رأسها رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، بل أنهم حاولوا اغتيال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مرة فى بنى النضير ومرة أخرى فى خيبر (٧هـ/٦٢٨م) كما أنهم ألّبوا كفار العرب على المسلمين فى الأحزاب (٥هـ/٦٢٦م) بل هم وراء مقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه (٢٣هـ/٦٤٣م) ، ووراء الفتنة التى أودت بحياة الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه (٤٠هـ/٦٦٠م) بل انهم كانوا يدعمون الصليبيين والمغول والتتار(٤) (٦٥٠هـ/١٢٥٣م) فى هجومهم على العالم الإسلامى ، إذن عداء اليهود على الأمة المسلمة قديم وتآمرهم يعود الى زمن بعيد .

الـوالـد : نعم ، جزاك الله خيراً يا محمود ، وياليت أمتنا تفهم هذه الحقائق حتى تعرف من أعداؤها ، فتعاديهم وتجاهدهم ولكن الجديد فى المسألة يا أولادى أن اليهود فى هذه المرحلة قبيل نهاية القرن الثالث عشر الهجرى أرادوا لهم أن يكون لهم دولة قائمة على سطح الأرض ، ترفع شعار اليهود ، وتقوم على أساس عقيدة اليهود تمهيداً لدولة يهودية عالمية تمسك – لا أقول برقبة العالم الإسلامى فقط – ولكن برقبة العالم كله، واختار اليهود بداية لهذه الدولة المزعومة أرض فلسطين .

محمود : ولكن يا أبى ، لقد قرأت فى كتاب الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها أن اليهود حاولوا اغتصاب أرض فلسطين وإقامة قاعدة عدوانية عليها على عهد السلاطين العثمانيين سليم الأول (٩٢٣هـ/١٥١٧م)وسليمان (٩٢٧هـ/١٥٢٠م) ومراد الثالث (٩٨٢هـ/١٥٧٤م) وعبد الحميد الثانى تحت ستار الحج(٥) وإقامة المستوطنات ، ولكنهم - بفضل الله - لم ينجحوا .

الوالد : نعم يا محمود ، لأن السلاطين العثمانيين أدركوا خطورة مرامى اليهود ولهذا تصدوا لمخططاتهم ومؤامراتهم ، رغم هذه العقبات فاليهود لم يتراجعوا عن مخططهم ، وكما قلت تلاقت أهدافهم مع أهداف الصليبية والإستعمار العالمى الذى يتستر بشعار الشيوعية العالمية والإلحاد العالمى ، أى كل القوى التى تحارب العالم الإسلامى، ولعلكم تذكرون قرارات مؤتمر « كامبل بانرمان » الذى حضرته أكثر من عشرين دولة أوروبية فى مقدمتها انجلترا وفرنسا ومن هذه القرارات : « ان الخطر الذى يهدد الاستعمار يكمن فى البحر المتوسط الذى يقيم على شواطئه شعب واحد يتميز بكل مقومات الوحدة والترابط ، ويجب أن تعمل الدول الإستعمارية على تجزئته وتفككه ، وإقامة حاجز بشرى قوى وغريب(٦) يمكن للاستعمار أن يستخدمه فى تحقيق أغراضه » وفى العام التالى وقع انقلاب عسكرى فى تركيا قام على أكتاف تنظيم سرى يسمى تنظيم الإتحاد والترقى ، وفى عام (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م) عزل السلطان عبد الحميد الثانى الذى كانت تعتبره أوروبا العقبة الكؤود الباقية فى وجه تمزيق العالم الإسلامى وغرس الكيان اليهودى فى قلبه ، وبدأ تنفيذ بقية أجزاء المؤامرة.

أسامة : كيف يحدث هذا ؟ أين الدولة العثمانية التى ظلت حوالى ستة قرون تحمى معظم ديار العالم الإسلامى ؟

محمود : أين قوتها الضاربة المجاهدة ؟ أين الأمة المسلمة ؟ حينما خطط الأعداء

وتآمروا ونفذوا مؤامرتهم ؟ .

الـوالـد : هذا سؤال جيد يا محمود ، ولكن دعنا نتحدث أولا عن هذه المؤامرة وكيف تم تنفيذها وابعادها وأخطارها فى الماضى والحاضر والمستقبل على الإسلام والمسلمين ، لعل أمتنا تفيق وتنتبه إلى هول ما يدبر لها فتأخذ زمام المبادرة وتقوم بواجب الجهاد امتثالاً لأمر الله ﴿**قاتلوا أئمة الكفر إنّهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون**﴾(٧) .

محمود : شكراً لك يا أبى .

الـوالـد : حينما فشل اليهود بمساعدة أوروبا الصليبية الملحدة فى تحقيق هدفهم فى اغتصاب أرض فلسطين وفشلوا فى حمل السلطان عبد الحميد الثانى على مساعدتهم لجأوا الى خطة خبيثة أعدوها عملوا لها منذ أمد بعيد : اسقاط دولة الخلافة ، والغائها ، وتمزيق ما تبقى من ديار العالم الإسلامى ، بأيدى أبناء ينتسبون إلى الإسلام ، مع الإتيان بنظام جديد ، يحكم ما تبقى من ديار الإسلام ويدور فى فلك السياسة الأوروبية الصليبية اليهودية الملحدة ، ووسيلتهم فى ذلك التنظيمات السرية داخل العالم الإسلامى تُوجّه من أعداء الأمة المسلمة وإن كان الأفراد الذين ينتمون اليه يتسمون بأسماء المسلمين(٨) .

أسـامـة : لا حول ولا قوة إلا بالله ، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يشير إلى أناس من أبناء جلدتنا ، يتكلمون بألسنتنا ويعاونون الأعداء فى تحقيق مخططاتهم ضد العالم الإسلامى .

الـوالـد : نعم وتقوم على أكتاف هذه الفئة تنظيمات سرية داخل ديار الإسلام لتدمير الأمة المسلمة. تنظيمات سرية ضدّ العالم الإسلامى داخل ديار الإسلام، وكانت العقبة أمام مخطط الأعداء ان الأمة المسلمة لا زال الخير فيها ، فحتى لا تنتبه الأمة إلى هذه المؤامرة الدنيئة ، لجأ الأعداء الى صبغ الإنقلاب العسكرى الذى جرى على أكتاف ضباط ينتسبون

الى تنظيم سرى الإتحاد والترقى وكان نواة له تركيا الفتاة) بصبغة الحرص على مصالح الأمة ، وإقامة حياة دستورية تقوم على انتخاب ممثلين للشعب ، وعدم ترك السلطان منفرداً بتسيير أمور الأمة .

إيمـان : نعم الشعار براق ، حياة دستورية ، اختيار ممثلى الأمة بالإنتخاب ! مشاركة ولى الأمر، توجيه أمور الأمة !

الـوالـد : ولهذا وقف الناس موقف المتفرج أثناء الإنقلاب العسكرى الأول عام (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) والثانى الذى أطاح بالسلطان عبد الحميد الثانى فى ٢٤ إبريل (نيسان)١٩٠٩م عام ١٣٢٧هـ

محمود : ولكن الأمة ثارت فى وقت لاحق قبل وقوع الإنقلاب العسكرى الثانى وطالبت بعودة العمل بالشريعة الإسلامية ، وعودة سلطان الخلافة والأخذ على أيدى أعضاء الإتحاد والترقى .

الـوالـد : قد حدث هذا فعلاً ، ولكن هل تدرون ، من كان وراء هذا الذى حدث ؟

الأبنـاء : لا .

الـوالـد : إنهم المتآمرون ، أعضاء تنظيم الإتحاد والترقى ، لقد أرادوا إثارة وجدان الشعب ، وإثارة الشغب ، ليتخذوا من ذلك تكأة لعزل السلطان عبد الحميد الثانى والقفز الى موقع السلطة(٩) والإمساك بزمامها لتنفيذ بقية المؤامرة وقد كان فعلا .

الأبناء : نريد أن نعرف ما هى جمعية الإتحاد والترقى ، من هم أقطاب هذه المؤامرة التى إستهدفت أمتنا وإسلامنا .

الـوالـد : تنظيم الإتحاد والترقى منظمه سرية أسسها بعض أعضاء جمعية كانت تسمّى جمعية تركيا الفتاة وتنقلت فى أماكن عديدة واستقر بها المطاف

فى النهاية فى مدينة سالونيك. وضمت أخلاطا شتى من عناصر ذات جنسيات متعددة وديانات متعددة ولكن كانت الكثرة الغالبة منها من الأتراك العثمانيين ، يليهم اليهود ثم بعض العرب وكان معظمهم من ضباط الجيش (١٠) .

إن جمعية الاتحاد والترقى تبدو فى تشكيلها تحالفا يهوديا تركيا مزدوجا، فالأتراك كانوا يمدونها بالمادة العسكرية الفاخرة ويمدها اليهود بالعقل المدبر وبالمال وبالنفوذ الصحفى القومى فى أوروبا .

أسامة : ولكن الذين قاموا بالانقلاب ، وعزلوا السلطان عبد الحميد الثانى عينوا مكانه السلطان محمد رشاد (الخامس) وبعدها حولوا جمعيتهم من منظمة سرية الى حزب سياسى عالمى فى إبريل ١٩٠٨م ١٣٢٦هـ (١١).

الوالد : هذه كانت لعبة سياسية ، لكى يظهروا أمام الناس أنهم ليسوا طلاب سلطة وأنهم حريصون على مصلحة أمتهم ، ريثما يتم لهم الإمساك بزمام الأمور لتنفيذ بقية المؤامرة .

الأبناء : يا لطيف ، صدق الله القائل **﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾** (إبراهيم: ٤٦)

الوالد : وقد كان لقد جاء الوقت الذى عُزل فيه السلطان محمد رشاد (الخامس) وبعده محمد وحيد الدين (السادس) وأتم مصطفى كمال ما بدأه غيره من الإنقلابيين ، ففصل بين السلطة والخلافة ، ثم أعلن الغاء الخلافة نهائيًا فى عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) .

أسامة : ذلك يعنى أن نجاح الإنقلاب العسكرى الأول الذى وقع فى ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) يعتبر ايذانًا بوقوع ما تبقى من بلاد العالم الإسلامى تحت قيادة الدولة العثمانية فى قبضة الصليبية واليهودية العالمية .

الـوالـد : تماماً يا أسامة .

إيمـــان : لكن ، الم ينتبه السلطان عبد الحميد الثانى فى وقت مبكر لمؤامرة أوروبا؟ وان لم يكن كذلك فهذا دليل على الغفلة .

أحمـد : صـدق الله العظيم القـائل : ﴿ **إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون** ﴾ (الممتحنة: ٢٧)

والقائل سبحانه ﴿ **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا** ﴾ (البقرة: ٢١٧) والقائل سبحانه ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم** ﴾ (البقرة: ١٢٠) .

الوالد : نعم يا بني وقد بين الأستاذ الدكتور الشناوى -حقيقة هذا العداء الدفين فى قلوب أبناء أوروبا ضد الخلافة الإسلامية بقوله :

«إن العالم المسيحى على إختلاف شعوبه تسوده روح صليبية ، وتعصب دينى عميق ويريد تحطيم الدولة العثمانية وغيرها من الدول الإسلامية ، ويريد أيضاً سحق الإسلام ، ومضى يقول أن الدول المسيحية فى عدائها وحقدها على الدول الإسلامية تلجأ الى العدوان المسلح ابتغاء اذلال الدول الإسلامية ، كما تعمل دائماً على القضاء على كل حركة إصلاحية يحاولها المسلمونه فى بلادهم» ، وكان مما جاء فى كتابه وهو يبسط آراءه فى موقف المسيحيين الغربيين من دول الشرق عامة والدول الإسلامية خاصة: «العالم النصرانى على اختلاف أممه وشعوبه ، عرقاً وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم ، وللإسلام على الخصوص ، فجميع الدول النصرانية متحدة معا على دك الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا» . ويمضى فى كتابه يقول: «روح الصليبية لم تبرح كامنه فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك مختلجة فى قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت فى قلب بطرس

الناسك من قبل، فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً فى عناصرها متغلغلاً فى أحشائها ، ومتمشياً فى كل عرق من عروقها ، وهى أبدا ناظرة الى الإسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى الممقوت، وجميع الشعوب النصرانية مجتمعة متفقة على عداء الإسلام ، وروح هذا العداء متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهدا خفيا مستتراً متواليا لسحق الإسلام سحقاً ، ويختتم عرض آرائه بقوله: «جميع هذا يوضح أن العالم الاسلامى يجب عليه أن يتحد اتحادا دفاعيا عاما ، متمسك الاطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الزياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ، وللوصول الى هذه الغاية الكبرى ، إنما يجب عليه اكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته (١٢) .

ولهذا فإن الدولة العثمانية هى التى احتضنت حركة الجامعة الإسلامية(١٣) فى القرن الثالث عشر وكانت تدعوا الى وحدة الصف الإسلامى فى محتواه الكبير شعوباً وحكومات فى مشارق الأرض ومغاربها ، والوقوف كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا حول الدولة العثمانية(١٤) بصفتها أكبر دولة إسلامية فى العالم فى ذلك الوقت .

«ولم تستهدف هذه الحركة التفوق السياسى أو السيطرة على العالم أو سيادة الجنس أو اللغة ، ولكن كان غرضها تخليص العالم الإسلامى مما يئن منه من سيطرة أجنبية مسيحية ، وتدخل أوروبى ، وأزمات سياسية ، وإختناقات مالية ، ونهب ثرواته واستغلال شعوبه » .

ان الدولة العثمانية باحتضانها فكرة الجامعة الإسلامية كانت رمزاً حياً مجسداً للتضامن الإسلامى للوقوف فى وجه الزحف الأوروبى الإستعمارى على العالم الإسلامى .

محمود : ولكن السؤال الذى يطرح نفسه الآن يا أبى ماذا عن النشاط التنصيرى داخل الدولة العثمانية ؟

الـوالد : لقد سمحت الدولة العثمانية للبعثات التنصيرية(١٥) أن تباشر نشاطاً تعليمياً وثقافياً واسع النطاق داخل ديار الدولة العثمانية ، بخاصة فى ولايات الشام ، إبتداء من سنة (١٠٣٥هـ/١٦٢٥م) ، وقد كان هؤلاء المنّصرون ينتسبون إلى مذاهب دينية عديدة ، الكاثوليك والبروتستانت والارثوذكس وغيرهم وقد وفدوا من انجلترا وفرنسا وروسيا وبروسيا والولايات الإيطالية والولايات المتحدة الأمريكية .

وكان لأفراد هذه البعثات التنصيرية نشاط دينى مكثف تستر وراء نشاط تعليمى وثقافى واسع النطاق ويتمثل فى إنشاء عدد من المدارس والمعاهد والكليات الأجنبية فى أصقاع شتى من أنحاء بلاد الشام ، كما تمثل فى إنشاء جمعيات أدبية وعلمية ذات صفة مسيحية»(١٦) .

« فأنشأ المنصرون البروتستانت الأمريكيون مدارس مختلفة فى بيروت والقدس ومدن أخرى فى ربوع لبنان ، ثم حولوا مدارسهم العالية فى بلدة بجبل لبنان إلى كلية تربية لاعداد المعلمين المؤهلين واستعانوا بخريجى هذه الكلية فى التوسع فى إنشاء مدارس جديدة حتى بلغ عددها فى سنة ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م ثلاثين مدرسة .

« أما الجمعيات الأدبية والعلمية فكان أولها جمعية الاداب والعلوم ، وقد تأسست سنة (١٢٦٤هـ/١٨٤٧م) ، وبلغ عدد أعضائها خمسين عضواً لم يكن بينهم عضو مسلم واحد ، بل ضمت أمريكيين وانجليز من المنصرين، كما شملت عضوية الجمعية السوريين النصارى المقيمن فى بيروت ، ومن بينهم نصيف اليازجى وبطرس البستانى ، وقد تعاونا مع المنصرين بوجه خاص، وفتحا أمامهم باب العمل فسيحا» .

لقد ركزت البعثات التنصيرية الأوروبية جهودها فى ولايات الشام بوجه خاص ولم تشهد باقى الولايات العثمانية العربية مثل هذا النشاط التنصيرى المكثف من حيث حجم عدد البعثات أو نشاط أفرادها أو تغلغلهم فى الأوساط الشامية .

لم يعد النشاط التنصيرى مقصورا على الغرض الدينى وهو تحويل الأهالى الى المسيحية والى مذهب دينى معين بل أصبحت هذه البعثات أداة طيعة لينة فى يد الحكومات الأوروبية تعتمدعليها فى بسط نفوذها السياسى والثقافى والدينى على البلاد التى سيطرت عليها أو تتطلع الى إمتلاكها ، وغدا النشاط التنصيرى من أقوى الركائز الإستعمارية ولا يزال ماثلاً فى الأذهان فى الوقت الحاضر الدور الذى قام به أعضاء البعثات التنصيرية فى جنوب السودان ابتغاء فصم الروابط بين جنوبى السودان وشماله .

وفى القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) تزايد خطر البعثات التنصيرية على ولايات الشام بعد أن أصبحت هذه البعثات أدوات للمطامع السياسية بحيث شكلت تهديدا للدولة فى وقت كانت تجتاز دوراً خطيراً من أدوار الإضمحلال ، وتعرضت لهزات عنيفة ، وفى وقت انتزع الاستعمار الأوروبى منها ولاياتها سواء فى أوروبا أو فى أفريقية ، وأصبحت الدولة العثمانية عاجزة فعلا عن وقف التدفق التنصيرى على بلاد الشام» .

«ان البعثات التنصيرية جاءت الى بلاد الشرق وهدفها نشر العقيدة المسيحية بين المسلمين ، كما كانت كل طائفة يحدوها الرغبة فى تحويل المسيحيين من المذاهب الأخرى الى مذهبها ، بل ان الأمير فخر الدين بن معن الثانى (٩٩٤-١٠٤٥هـ) وهو درزى اتسع نفوذه وحكم بقاعا فسيحه من بلاد الشام ، سمح لاعضاءالبعثات التنصيريةبمباشرة نشاطهم الدينى لتحويل المسلمين والدروز الى المسيحية ، وكان أول أمراء لبنان الذين فتحوا بلادهم للتنصير وللنفوذ الغربى .

كما أن حركة القومية العربية التى تنادى اليها مسيحيوا الشام فى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر الهجرى كانت فى لحمتها وسداها ردا عقليا لامتصاص أو التهام حركة الجامعة الإسلامية التى تزعمها السلطان

عبد الحميد .

محمود : والسؤال الذى يطرح نفسه الآن ياوالدى كيف سمحت الحكومة العثمانية بمثل هذه الأنشطة التى عرضت أمن العالم الإسلامى للخطر؟

الوالد : هذا سؤال جيد يا محمود ويحتاج إلى لقاء آخر للإجابة عليه، ولكن يكفى أن نذكر هنا أن الغفلة التى كانت عليها بعض أجهزة الدولة العثمانية هى التى أدّت إلى السماح لهذه الدول الأوروبية النصرانية أن تباشر نشاطاتها التنصيرية(١٧) داخل ديار المسلمين . وللحديث بقية إن شاء الله.

أسامة : معذرة يا أبى قبل أن ننهى لقاءنا هذا ، هناك شئ يحيرنى ، حينما زرت مدينة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، شاهدت هناك خط سكة حديدية ، ومحطة قطارات وبعض القاطرات القديمة ، وحينما سألت عنها أهل المدينة ، أخبرونى أن هذه بقايا خط السكة الحديدية الذى كان يربط المدينة المنورة ببلاد الشام ، والذى أنشأه العثمانيون ، والآن أتساءل ، من من الحكام العثمانيين أنشأ هذا الخط لحديدى ؟ وما الهدف الذى كان يهدف اليه ؟ وهل كان فى تفكيرْ مَدّ هذا الخط إلى جهات أخرى ؟ إلى مكة مثلاً لخدمة الحجيج ، وما طوله ؟ وكم تكلف ؟ وكم استغرق التنفيذ ؟ من الذى خرب هذا الخط ، ولماذا ؟ وهل يمكن أن يعاد تشغيله الآن ؟ .

الوالد : ما شاء الله يا أسامة ، هذه أسئلة جيدة تعنى أن اللقاء هذه المرة سيكون لحسابك الخاص .

أسامة : جزاك الله خيرا ، وأعتقد أن نفس الأسئلة تدور فى أذهان إخواتى، لأنهم شاهدوا (محطة السكة الحديدية) معنا أثناء زيارة مدينة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

الأبناء : هذه حقيقة وبارك الله فيك يا أبى وفى أسامة .

الوالد : حسنا ، فى عام (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م) قال السفير البريطانى فى الأستانة (اسلامبول) كلمة تلقى الضوء على هذه المسألة :

« إنّ من أهم الأحداث السياسية التى شهدتها الدولة العثمانية ، فى خلال السنوات العشر السابقة تلك السياسة الماهرة التى حدت بالسلطان (عبد الحميد الثانى) أن يظهر أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين بمظهر الخليفة والزعيم الروحى للإسلام ، وثبت فى نفوس رعاياه الحماسة والإستجابة لشعوره الدينى حين مد سكة حديد الحجاز التى ستيسر لكل مسلم فى المستقبل القريب ، سبيل الحج إلى الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة فتتيح لهم التمتع فى الآخرة بمسرات الجنة ومباهجها ، فكان من نتيجة ذلك أن أصبح رعاياه يدينون له بالطاعة الى حد ليس له من قبل مثيلا» .

إذن يا أبنائى مدّ خط السكة الحديدية من الشام إلى المدينة المنورة هو فى نظر أبناء أوروبا حدث سياسى ضخم الهدف من ورائه ربط أقطار العالم الإسلامى وتيسير سبل الإتصال لتقوية الرابطة الإسلامية ، وتيسير سبل الحج الى الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة ، وأن هذا يؤكد أن العاطفة الإسلامية بين الخليفة والرعية كانت متينة وقوية .

وذلك يعنى أن الأعداء قد تنبهوا لحقيقة الأمر ، ولهذا بدأوا يخططون للوقوف فى وجه تنفيذ الجزء الباقى من المشروع ، بل تدمير ما تم تنفيذه كما سنرى فى نهاية حديثنا عن هذه المسألة .

محمود : رحم الله السلطان عبد الحميد الثانى ، لقد كان يدرك أن شبكة مواصلات قوية تربط بقاع العالم الإسلامى كفيلة بتقريب المسافات بين ديار الإسلام ، وتعين على تقوية الروابط والأواصر الإسلامية . كما يمكن أن تعين المسلم على نجدة إخوانه فى بقاع الوطن الإسلامى ، فى

حالة تعرضهم لأى خطر ، كما تعاون على تنمية التجارة والزراعة والصناعة ونقل المنتجات بين بلاد العالم الإسلامى .

الوالد : نعم يا بنى ، وقد أدرك ذلك أعداء الإسلام وعملاؤهم ، ولذلك فإنهم حرصوا ويحرصون على عدم تنفيذ شبكة مواصلات تربط ديار العالم الإسلامى ، بل وحرصوا على بقاء شبكة المواصلات فى حالة من التخلف حتى لا يتيسر سبل الإتصال بين أبناء العالم الإسلامى ، بل أنهم غرسوا الكيان اليهودى على أرض فلسطين للحيلولة بين مسلمى أفريقيا من الإتصال بمسلمى آسيا كما قرر ذلك أبناء أوروبا فى مؤتمر كامبل بانرمان عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٧م .

هذا المشروع يا أولادى كان يهدف فى مرحلته الأولى إلى مد الخط الحديدى من دمشق الى المدينة المنورة ، ثم الى مكة ، ثم الى اليمن ثم بعد ذلك إلى الهند .

وصاحب فكرة هذا المشروع الطيب عزت باشا العابد السكرتير الثانى للسلطان عبد الحميد الثانى ، ويقوم على إصدار طابع بريدى خصصت حصيلته لتمويل المشروع بالإضافة الى التبرعات التى بلغت مليون جنيه.

وقد تم تنفيذ المرحلة الأولى من المشروع ، بمعنى مد الخط الحديدى(١٨) من دمشق الى المدينة المنورة بطول ١٣٠٣كم ، وقد بلغت جملة التكاليف ثلاث ملايين من الجنيهات ، وقد عاون فى إنشائه الألمان الذين بدأوا عملهم فى مطلع (١٣١٩ هـ/١٩٠١م) فى المزيريب من أعمال حوران ببلاد الشام ، وأصبح الخط صالحا للتشغيل فى عام (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م) أى بعد سبع سنوات .

محمود : لله دركم يا سلاطين آل عثمان ، ما أعظم السلطان عبد الحميد الثانى الذى إحتضن الفكرة الطيبة وتابع تنفيذها ، من أجل مصلحة العالم الإسلامى .

أسـامـة : إنها فكرة عزّت عابد الباشا ، وهو من أصل عربى .

محمـود : لا تثيرها عصبية يا أسامة .

أسـامـة : لا أقصد ذلك ، إنما هو بيان لمن يتهمون الدولة العثمانية بأنها كانت عنصرية تركية ، فرغم أن عزت عابد باشا كان من أصل عربى ، إلا أن السلطان عبد الحميد إحتضن فكرته ونفذها ، لم يقل أنها صادرة من عنصر آخر غير تركى ، حاشا لله ، ولكنه كان يؤمن بأن الرابطة الإسلامية فوق كل الروابط .

محمـود : سامحنى ، لقد أسأت الفهم .

إيمـان : كيف كان يبدوا العالم الإسلامى لو تم تنفيذ هذا المشروع ، وما أحوجنا اليه الآن؟

الـوالـد : نعم يا أبنائى ، ولكن الأعداء انتبهوا الى أهمية هذا المشروع للعالم الإسلامى ولذلك عرقلوا بقيته ، وعملوا على تدمير ما تم تنفيذه .

الأبناء : كيف ؟

الـوالـد : حينما قامت الحرب العالمية الأولى ، حرصت بريطانيا نيابة عن دول أوروبا (الحلفاء) على تدمير ما تبقى من قوة العالم الإسلامى الإقتصادية والعسكرية بيد أبنائه ، ولذلك فقد استقطبت العرب لتحارب الى جانب دول الحلفاء (ومنهم انجلترا وفرنسا)، واستقطبت الأتراك لتحارب إلى جانب المانيا ، فاذا بالعربى المسلم يقاتل التركى المسلم ، وتحطمت وحدة الصف المسلم .

أسـامـة : لا حول ولا قوة ال بالله ، وكيف وصل التدنى فى الخلق والدين الى درجة أن المسلم سواء كان تركيا أو عربيا يعطى ولاءه للكافرين ، كيف يعطى التركى المسلم ولاءه للالمانى الكافر ؟ كيف يعطى العربى المسلم

ولاءه للإنجليز والفرنسيين الكفرة ؟ كيف يسمح التركى المسلم لنفسه أن يعادى بل يقاتل العربى المسلم ؟ هل غاب مفهوم الولاء والبراء عن تفكير المسلمين إلى هذا الحدّ ؟

محمـود : الم ينتبهوا الى توجيهات الله ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ، إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون**﴾(١٩) .

إيمـان : يا أخى محمود ، لماذا تذكر هذه التوجيهات الربانية فيما يتصل بالماضى فقط ، وتنسى واقعنا المعاصر ، أمتنا المضيّعة ، فالأنظمة فى عالمنا المعاصر منها من يعطى ولاءه للشرق ومنها يعطى ولاءه للغرب ومنهم من يعطى ولاءه لليهود ومنهم من يعطى ولاءه للصليبية العالمية ، وقوى الإلحاد العالمى ، وفى نفس الوقت هى حرب وسوط عذاب على المسلمين .

محمود : كلامى لا يعنى أننى أنسى واقعنا المعاصر الذى يدمى القلوب ، وهى مسؤلية الأمة ، بل تقع المسؤلية بالدرجة الأولى على العلماء .

الـوالـد : أنتم تدخلون بنا فى موضوع على جانب كبير من الأهمية ، ولكن ذلك يكاد أن ينسينا موضوعنا الأصلى .

أسـامـة : نعم أريد أن أعرف مَنْ مِن الشعوب العربية التى دخلت الحرب الى جانب الحلفاء؟

الـوالـد : الشريف الحسين أمير الحجاز ، لقد أعلن ما يسمى بالثورة العربية

الكبرى ضد الدولة العثمانية ، بعد أنّ ضحك عليه الإنجليز (مراسلات هنرى ماكماهون - الشريف الحسين) ومنّوه بدولة عربية مستقلة يقوم على أمرها خليفة عربى ، فالتقم الطعم ، ومن هنا قَبِلَ أن يعلن الحرب الى جانب الكفار الإنجليز .

أسامة : لا حول ولا قوة إلا بالله ، أريد أن أعرف ما علاقة سكة حديد الحجاز المدينة دمشق بالثورة العربية الكبرى .

الوالد : نعم ، لقد كان فيصل بن الشريف قائد الجيوش العربية ، وكان مستشاره الخاص لورانس عميل اليهودية والصليبية العالمية الذى أشار على فيصل بأول عمل يقوم به ، وكان هذا العمل تخريب الخط الحديدى المدينة المنورة دمشق .

الأبناء : لا حول ولا قوة الا بالله ، وهل إستجاب فيصل ؟ وأمر بتخريب سكة حديد المدينة المنورة دمشق ؟

الوالد : نعم وهذا ما سنتعرض له فى لقاء آخر إن شاء الله . ولا تنسوا دعاء ختام المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك.

أسئلة حول اللقاء الثالث

(١) لقد حذر الله الأمة المسلمة من أعدائها؟ من هم الأعداء مع الاستدلال على ذلك من القرآن الكريم بالآيات التى تذكر هذا التحذير وما هو التكليف الذى يترتب على هذا التحذير؟

(٢) لماذا تآمر الأعداء على إسقاط الخلافة؟ وما هو الحكم الشرعى على وجوب نصب الخليفة؟

(٣) دور البعثات التنصيرية الأوربية فى إثارة الفتن الطائفية؟ وهدم الخلافة؟

(٤) لماذا حرض السلطان عبد الحميد على مد شبكة مواصلات لربط العالم الإسلامى؟ ومن الذى دمّر خط سكة حديد المدينة المنورة – الشام وماذا نتعلم من هذه الحادثة التاريخية.

مصادر ومراجع اللقاء الثالث

(١) الدولة العثمانية صفحة ٩ .

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ٢ ، صفحة ٩٦٦ وما بعدها.

(٣) آية ٨٢ سورة المائدة.

(٤) البداية والنهاية، ابن كثير، جـ١٣ ، صفحة ٢٠٢.

(٥) الدولة العثمانية ، ج٢ ، صفحة ٩٦٦.

(٦) السياسة الدولية وفلسطين، د. محمد كمال الدسوقى صفحة ١٤١-١٤٣؛ الطريق إلى بيت المقدس، ج٢، د. جمال عبد الهادى وآخرين، دار الوفاء للطباعة والنشر، حاضر العالم الإسلامى، ل. ستودارد، ترجمة نبيه فارس وآخرين، وتعليق شكيب أرسلان (مائة مشروع لتمزيق الدولة العثمانية) الحركة الصليبيةج٢ صفحة ١١٩٨.

(٧) التوبة آية : ١٢.

(٨) الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية، تقديم ودراسة د. مصطفى حلمى حول كتاب النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والنعمة، لشيخ الإسلام مصطفى صبرى، دار الدعوة الاسكندرية؛ تاريخ الدولة العثمانية، أ.د. على حسون، المكتب الإسلامى، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر، أ.د. محمد محمد حسين، دار النهضة العربية.

(٩) الدولة العثمانية ، ج٢ ، صفحة ١٠٠٦-١٠٠٧

(١٠) المرجع السابق ، ج٢، ص١٠٠٤، ١٠٠٥، ١٠٠٦، كما ذكر ذلك السفير البريطانى فى اسلامبول .

(١١) المرجع السابق ، ج٢،صفحة ١٠٠٧ .

(١٢) الدولة العثمانية، ج١ ، صفحة ٧١ ، ٧٢ ، حاضر العالم الإسلامى ج١ ، ص٣٠٦ -٣٠٧ .

(١٣) ويلاحظ أن حركة الجامعة الإسلامية عاصرت حركتين أخريين فى العالم المسيحى هما حركة الجامعة الصقلية ، وحركة الجامعة الجرمانية فى أوروبا ويلاحظ أيضاً أن حركة الجامعة الإسلامية أهم وأشمل من حركة القومية العربية التى تنادى بها فريق من القوميين المسيحيين فى بلاد الشام ردا على حركة الجامعة الإسلامية .

(١٤) العهد العثمانى ، صفحة ١٩٧ ، هل أدركتما الآن أن ديار العالم العربى الإسلامى لم تقع فى يد الإحتلال الأوروبى الا بعد ضعف الدولة العثمانية وسقوطها .

(١٥) وهنا نتساءل كيف سمحت الدول الإسلامية لأعداء الإسلام أن يباشروا نشاطاً يهدف إلى ردّ المسلمين

كفاراً؟ الدولة العثمانية دولة إسلامية ، ج١ ، ص٩٨-١٠٦ .

(١٦) التبشير والإستعمار فى البلاد العربية، عرض لجهود المبشرين التى تومى إلى إخضاع الشرق للإستعمار الغربى، د. عمر فروخ، د. مصطفى الخالدى، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٧٣؛ تنصير العالم، مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثانى، أ.د. زينب عبد العزيز، دار الوفاء للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥. التنصير خطة لغزو العالم الإسلامى (الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التبشيرى الذى عقد فى مدينة جلين آيدى بولاية كولورادو فى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٧٨ ونشرته دار مارك للنشر.

(١٧) نادى نادى نجيب عازورى وهو أحد القوميين المسيحيين فى بلاد الشام الى إنشاء دولتين فى الشرق العربى الآسيوى ، احداهما دينية إسلامية عربية صغيرة مستقلة تكون عاصمتها مكة المكرمة ، وتحكمها أسرة عربية إسلامية ، ويُلَقَّب حاكم الدولة باسم خليفة ، والدولة الثانية علمانية ، وتضم سورية ولبنان وفلسطين ، وقال ان انشاء هذه الدولة يقضى على مخاوف المسيحيين فى بلاد الشام على إختلاف مذاهبهم كاثوليك وبروتستانت وأرثوذكس شرقيين يونانيين ، وعلى مخاوف اليهود ، وبذلك لا تخضع للنظم الإسلامية العناصر المسيحية واليهودية فى الدول العربية المرتجاه ، وكان يعارض انضمام مصر والعراق الى هذه الدولة التى كان يقترح انشاءها إذ كان يخشى قيام دولة عربية مترامية الأطراف تقطنها أغلبية مسلمة ويتحول فيها المسيحيون بالشام الى أقلية دينية » . (الدولة العثمانية ، ج١ ، صفحة ٩٨-١٠٦ وهامش ٣صفحة ١٠٥).

(١٨) العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز فى الفترة ما بين ١٢٩٣-١٣٣٤هـ (١٨٧٦-١٩١٦م)، د. فائق بكر الصواف، صفحة ١٢٩-١٣٣.

(١٩) آية ١ سورة الممتحنة .

اللقاء الرابع

الحوار يدور حول الموضوعين التاليين:

(أ) الرد على شبهة ضريبة الغلمان التى زعم المستشرقون أن العثمانيين قد فرضوها على أهل الكتاب.

(ب) السلطان أورخان يكوّن الجيش الجديد (الانكشارية) على الجهاد وحب الشهادة فى سبيل الله.

الـوالـد : الحمد لله والصلاة والسلام على محمد رسول الله نواصل اليوم يا أبناءنا حديثنا عن أحد قادة الدولة العثمانية ، وهو أورخان(٧٢٦هـ/١٣٢٥م) بن عثمان رحمه الله .

أسـامة : اسمح لى يا أبى بكلمة ، لقد أحببت سلاطين الدولة العثمانية ، بعد أن عرفت منك تاريخهم الصحيح ، وأنهم كانوا يعتبرون الله غايتهم ، والرسول زعيمهم والقرآن دستورهم والجهاد سبيلهم والموت فى سبيل الله أسمى أمانيهم .

الـوالـد : نعم يا بنى .. هذه هى معلوماتنا عن العثمانيين ، وما شهدنا إلا بما علمنا .

أسـامـة : لكنى .. لو أذنت لى يا أبى ، أجدنى حائراً ، تجاه تصرف غريب ينسب إلى سلاطين الدولة العثمانية ، ألا وهو ما يسمى بضريبة الغلمان كيف وهم مسلمون ، كانوا ينتزعون الأطفال النصارى من بين أهاليهم ويجبرونهم على اعتناق الإسلام ، ثم يلحقونهم بالجيش الجديد (الإنكشارية) .. الذى كوّنه السلطان أورخان

محمـود : والأسوأ من ذلك -يقال- أنهم كانوا يصبغون هذه الجريمة بالصبغة الشرعية ، ويسمونها ضريبة الغلمان ، فأى ضريبه هذه التى تسمح لحاكم مسلم ، أن ينتزع خمس عدد أطفال كل مدينة باعتبارهم خمس الغنائم التى هى حصة بيت المال ؟

الـوالـد : هل انتهيتم من عرض ما قرأتم ؟

الأبناء : نعم .

الـوالـد : هناك مسائل كثيرة يجب أن نستحضرها يا أبنائى ، وأولها .. لقد تعلمنا فى مدرسة الإسلام **﴿يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم**

نادمين﴾ (١) ، وهؤلاء المستشرقون الذين أخذتم عنهم معلوماتكم فسقة، وبالتالى فشهادتهم مردودة لأنه لا يجوز أخذ شهادة الفاسق على المسلم ويحض على ذلك توجيه الإسلام فى هذا الشأن فى كلمة عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى (٢) : «كيف تؤمنوهم وقد خونهم الله» .

إيمـــان : ولكن يا أبى ، إن الذين ألحقوا هذه التهمة بالدولة العثمانية ، ليسوا هم المستشرقون فحسب ، ولكن معظم الكتاب المسلمين أيضاً يرددون نفس ما قاله المستشرقون .

الـوالـد : أنا أعلم ذلك ، ولو لم تستعجلى يا إيمان ، أنا كنت سأشير إلى ذلك . إن كثيراً من أبناء العرب والمسلمين رددوا هذه الفرية نقلا عن المستشرقين دون تدقيق أو تمحيص لهذا الخبر ، ليس فقط بالنسبة لهذه الفرية ، بل بالنسبة لكثير من الافتراءات التى ألحقها المستشرقون بتاريخنا الإسلامى فى العصر الحديث بل إنّ الذى يبعث على الأسى أن هذه الافتراءات تدرس لأبنائنا فى المدارس والجامعات وكأنها حقائق مسلم بها.

أسـامـة : هل ذلك يعنى أن غالب كتابات أبناء العرب والمسلمين فى العصر الحديث تعتبر امتداد لكتابات المستشرقين ، وما كان لهم أن يفعلوا ذلك، لأنه كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع .

الـوالـد : تماماً ، والآن دعونى أكمل حديثى ، ثانياً .. أن الله سبحانه وتعالى قد علمنا أن هؤلاء المستشرقين اليهود والنصارى لهم أهداف حذر الله منها بقوله : **﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾**(٣) .

وهذا خط ثابت يلتزمونه ضد المسلمين ، سواء فى هجمتهم العسكرية أو الاقتصادية أو الفكرية ولهذا تجد كتاباتهم -غالبها- تشويه وتزييف لتاريخ

الإسلام والمسلمين ، بل ويخصون بغالب حقدهم الخلفاء والسلاطين والعلماء المسلمين المجاهدين أمثال أبى بكر رضى الله عنه وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ، ومعاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية وهارون الرشيد وصلاح الدين يوسف بن أيوب ومحمد الفاتح وغيرهم فهل بعد بيان الله ، يجوز لمسلم أن يأخذ شهادة المستشرقين ومن سار على نهجهم، على التاريخ الإسلامى وعلى سلاطين الدولة العثمانية وغيرهم من العلماء المسلمين ؟ لا يجوز طبعاً .. ومن هنا لا يجوز لكم أن ترددوا ما قالوه عن تاريخنا الإسلامى .

ثالثاً : إن الرجوع إلى كتب الفقه الإسلامى ، تؤكد أنه لا يوجد باب إسمه ضريبة الغلمان ، ولم نسمع أدنى إشاره إليها فى كتاب الله أو فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، إن الإسلام أساساً لا يجيز ضريبة اسمها ضريبة الغلمان .

رابعاً : لقد تعلمنا فى مدرسة الإسلام أنه لا يجوز التسليم بصحة الرواية التاريخية قبل تتبع مسارها البشرى ، الناس الذين تناقلوها ، أمانتهم ، موضوعيتهم وعدم تحيزهم ، فإذا طبقنا هذه القاعدة ، نجد أن رواية المستشرقين ومن سار على نهجهم فى هذا الشأن باطلة سنداً ومتنا .. لأنه ليس لها سند صحيح كما أن الرجال الذين نقلوها ليس عندهم دين ، ولا أمانة لمن لا دين له .

محمود : إذن من أين جاءت هذه الفرية، فرية «ضريبة الغلمان» .

الوالد : تعرفون يا أبنائى أن الدولة العثمانية كانت دولة مجاهدة على امتداد ستة قرون أو يزيد، تجاهد أعداء الله وأعداء الرسول وأعداء الإنسان لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، لا ينقطع قتالها ضد أعدائها على جهات امتدت آلاف الكيلومترات ، وأثناء ذلك كان يُقتل كثير من الآباء والأمهات من المسلمين وغير المسلمين الذين خلفوا

أعداداً ضخمة من الأطفال اليتامى سواء من أبناء المجاهدين المسلمين أو من أبناء غير المسلمين ، وكان لابد أن تقوم الدولة العثمانية برعاية هؤلاء اليتامى حلا لهذه المشكلة ، لأنهم رعاة الأمة وكل راع مسئول عن رعيته ، فأنشأت الدولة نظام الدوشرمة (٤) وهو نظام أخذت الدولة على عاتقها بموجبه مسئولية رعاية اللقطاء والمشردين واليتامى من الأطفال المسلمين وغير المسلمين الذين لا يجدون من يعولهم .

أسامة : وكيف كانت تتم رعاية هؤلاء الأطفال المشردين ؟

الوالد : كانت الدولة تلحقهم بدور لرعايتهم ، حتى إذا ما شبوا عن الطوق ، ألحقوهم بمدارس يتعلمون بها قاعدة من العلوم الشرعية تقوم على التعريف برب العالمين وبالإسلام وبنبيه محمد ﷺ ، ويتدرجون فيها فى دراسة كافة فروع المعرفة مثل الطب والهندسة والعلوم العسكرية واللغة والتاريخ ويقترن ذلك بتدريبات رياضية وعسكرية ، ليصبحوا فى نهايتها جنداً وضباطاً وقادة ومهندسين وأطباء مجاهدين فى جيوش الدولة العثمانية ، وكان كل طفل من هؤلاء الأطفال له نفس حقوق المسلمين وعليه ما عليهم من واجبات ، وكانت تتاح له فرصة الترقى والوصول إلى أعلى مكان فى قيادة الدولة ، إذا كانت كفاءته تؤهله إلى ذلك.

إيمان : ما أرحم قلوب هؤلاء الحكام العثمانيين ، وما أحوج العالم ، لا أقول الإسلامى ، بل العالم كله إلى نماذج من هؤلاء الحكام يقودونهم إلى خيرى الدنيا والآخرة بكتاب الله وسنة رسوله ، إنهم لم يتركوا الأطفال مشردين ضائعين مثلما نرى أمامنا ، فكم من الأطفال اليتامى خلفهم الاغتصاب اليهودى لأرض فلسطين مع إبادة وتشريد شعبها ، كم من الأطفال اليتامى تخلفهم كل يوم الحرب فى لبنان كم من الأطفال اليتامى والمعوقين خلفهم الصرب والكروات على أرض البوسنة والهرسك، كم من الملايين من الأطفال اليتامى خلفهم الروس فى احتلالهم وبغيهم على أرض تركستان ، وتتاريا والقرم ، وخلفهم مشركو الصين من

احتلالهم لتركستان وخلفهم الروس فى محاولتهم لاغتصاب أرض أفغانستان ، كم من الأطفال المشردين خلفهم الأحباش الصليبيون فى هجمتهم على المسلمين فى الحبشة وأرتيريا ، كم من الأطفال اليتامى خلفهم بغى النظام الصليبى على العالم الإسلامى ، كم من أطفال المسلمين اليتامى فى هذه البلاد أخذهم الشيوعيون ليربوهم على الإلحاد مثلما فعل الروس بأطفال أفغانستان ، وكما فعل الصليبيون بأطفال الحبشة وارتيريا والبوسنة والهرسك وأذربيجان والصومال وتتكرر مأساة الأطفال اليتامى والمشردين بلا مأوى وبلا رعاية من نتيجة الهجوم الروسى الأرثوذكسى الذى تدعم المنظمات الصليبية واليهودية الدولية والمحلية على أهل الشاشان .

محمــود : بل إن العثمانيين لم يفعلوا مثلما فعل الشيوعيون الروس بأطفال أفغانستان ، لقد اعتاد الروس أن يلقوا عليهم أسلحة الدمار التى تفتك بهم على هيئة لعب أطفال يمسكها الطفل البرئ فتقتله أو تشوهه ، بل من الثابت أن الصرْب الكفار كانوا يطلقون الرصاص على الأطفال فقتلوا ما لا يقل عَن عشرة آلاف طفل .

الأبنــاء : لا حول ولا قوة إلا بالله .

أسـامـة : ولم يقف اعتداء الروس على أطفال أفغانستان عند هذا الحد ، فقد أخذ الروس أعداداً كبيرة من أطفال أفغانستان ليلقنوهم مبادئ الشيوعية الملحدة؛ والأخطر من ذلك أنهم قد دربوهم أيضاً على أن يكونوا جواسيس على أمتهم وأهلهم .

إيمـــان : ومن صاحب هذه الفرية إذن يا أبى فرية ضريبة الغلمان ؟ ولماذا انتشرت فى معظم الكتب الذائعة الصيت والمقررة فى دور العلم والتى تتحدث عن تاريخ الدولة العثمانية بما فيها كتب المؤرخين المسلمين المشهود لهم بالغيرة على الإسلام ؟

الوالد : إن الذى تولى كبر هذا الأمر الكتاب الأجانب كما قلنا ، ومنهم كارل بروكلمان و«جيبونز» و «جب» ، وبعد ذلك جاء أبناء العرب والمسلمين فرددوا ما قاله هؤلاء .

محمود : ولكن ما صلة الجيش الجديد بنى تشارى (ويرسم بالتركية يكيجارى) (الانكشارية) بضريبة الغلمان المفتراه ؟

الوالد : نعم ، الدولة العثمانية فى بداية تكوينها لم يكن لديها جيشاً نظامياً بالمعنى الذى نلمحه فى عالمنا المعاصر بمعنى أن الدولة كانت تعتمد على أعداد من الفرسان من بنى العشيرة ، وحينما كانت تحتاج إلى أعداد أكثر كانت تعلن النفير العام «حى على الجهاد» فتتقاطر عليها جموع المجاهدين من كل مكان فإذا وضعت الحرب أوزارها عاد المجاهدون من حيث أتوا .

أسامة : ولكن هذا الأسلوب لا يصلح لدولة كبيرة مثل الدولة العثمانية شغلها الشاغل كان الجهاد فى سبيل الله لإقامة دين الإسلام حتى يأمن الناس على أعراضهم وعقائدهم ودمائهم وأموالهم وعقولهم .

الوالد : تماماً ، ولهذا فقد فكر السلطان أورخان بن عثمان (٧٢٦- ٧٦١هـ/ ١٣٢٥ -١٣٥٩م) فى إنشاء جيش جديد يتناسب مع ازدياد تبعات الجهاد ضد البيزنطيين الذين تستروا بستار الصليب وحين استشار أخاه ووزيره علاء الدين وقواده الآخرين ، أشار عليه علاء الدين وقائده قرة خليل الذى صار فيما بعد وزيراً أولا باسم خير الدين باشا، بفكرة إيجاد جيش نظامى يكون دائم الاستعداد والتواجد قريباً منه فى حالة الحرب والسلم على حد سواء .. واقتنع أورخان بهذه الفكرة، وباشر من فوره تنفيذها، فجمع ألفا من المجاهدين الذين تشهد لهم المعارك التى خاضوها بالكفاءة والشجاعة ، فكانوا خليطاً من فرسان عشيرته وأمراء الروم وعساكرهم الذين دخل الإسلام فى قلوبهم وحسن إسلامهم ، ومن

مجاهدى النفير الذين كانوا يسارعون لإجابة داعى الجهاد كلما انطلق(٥) ، ومن الأطفال اليتامى الذين تربوا منذ نعومة أظفارهم على الجهاد فى سبيل الله .

إيمـــان : لابد وأن هؤلاء الروم الذين انضموا إلى الجيش الجديد ، كانت قلوبهم عامرة بحب الإسلام ومبادئه ، لدرجة المسارعة إلى التضحية بالنفس جهاداً فى سبيل الله .

الـوالـد : بارك الله فيك يا إيمان وهذا سبب من أسباب الهجمة الشرسة على سلاطين الدولة العثمانية ، لقد عز على أبناء أوربا أن تدخل أعداد كبيرة من الروم النصارى فى الإسلام ويتشربون من تعاليمه لدرجة الجود بالنفس فى سبيل الله ، فانطلقوا يشوهون تاريخ الدولة العثمانية محاولين أن ينفوا عن أبناء جنسهم الروم أنهم دخلوا الجيش العثمانى بإرادتهم ، إنما قد جندوا قهراً فى صفوف العثمانيين وهم أطفال صغار .

محمـود : ولماذا يحرصون على نفى دخول أبناء الروم فى دين الإسلام طواعية وانخراطهم فى سلك المجاهدين طواعية وعن طيب نفس ؟

الـوالـد : لأن معنى ذلك شهادة على أن دين الروم ليس فيه خير ، وأنهم غلاظ شداد أثقلوا كاهل شعوبهم بالمظالم والتكاليف المجحفة فى النفس والمال والولد ، وكبلوهم بأغلال العبودية ، وحينما وجد الناس الفرصة للتحرر بالاستسلام لله رب العالمين ، بادروا إلى ذلك ، وأتاح لهم الجهاد فى سبيل الله أن يشفوا غيظ قلوبهم ممن استعبدوهم واستبدوا بهم وأذاقوهم ألوان العذاب .

أسـامـة : فهمت الآن ، لقد أرادوا ضرب عصفورين بحجر ، تشويه نظام الإسلام بأنه كان يجيز أخذ ما يسمونه بضريبة الغلمان ، والشىء الثانى ، أنه أيها الناس إذا قرأتم فى كتب التاريخ أن الجيش العثمانى كان به شباب من الروم النصارى وغيرهم من أبناء أوروبا أسلموا لرب العالمين طواعية

وأصبحوا مجاهدين لا تصدقوهم ، إنما المسلمون أجبروا أبناء الروم النصارى على الانخراط فى سلك المجاهدين ؟

الوالد : تماماً .

محمود : يا ويلهم أعداء الإنسانية على هذا الدس والافتراء الخبيث ، وصدق الله القائل **﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾** ابراهيم : ٦٤ .

أسامة : ويا ويل أبناء المسلمين الذين ردّدوا هذه الافتراءات دون تمحيص أو تدقيق ألا يذكروا قول الله تعالى : **﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا ، سبحانك هذا إفك مبين﴾** (٦) فيتعلموا كيف يحسنون الظن بإخوانهم .

الوالد : تماماً .. أحسنت يا أسامة .

إيمان : ألا يوجد كاتب يقدم لنا دليلا على أن الروم البيزنطيين الذين اهتدوا إلى الإسلام كانوا يتشوقون إلى أن يصبح أبناؤهم مجاهدين فى سبيل الله؟ ويلتحقون بالجيش العثمانى ؟

الوالد : نعم ، لقد ذكر الدكتور محمد عبد العزيز عمر فى كتابه محاضرات فى تاريخ الشعوب الإسلامية «أن العديد من المؤرخين النصارى يعترفون أن الآباء الروم (البيزنطيين) الذين اهتدوا إلى الإسلام كانوا يتشوقون إلى تقديم أبنائهم عن طواعية للسلطان العثمانى ليربيهم تربية إسلامية ويلحقهم بالجيش (٧) .

وورد فى بعض المصادر التركية مثل «التاريخ السياسى للدولة العثمانية العلية» تأليف الصدر الأعظم كامل باشا «أن أورخان بن عثمان أراد أن يزيد عدد جيشه الجديد (يكيجارى) بعد أن ازدادت تبعات الجهاد ومناجزة البيزنطيين فاختار عدداً من شباب الترك وعدداً آخر من شباب البيزنطيين الذين أسلموا وحسن إسلامهم فضمهم إلى الجيش واهتم

اهتماماً كبيراً بتربيتهم تربية إسلامية جهادية ، ولم يلبث الجيش الجديد حتى تزايد عدده ، وأصبح يضم آلافًا من المجاهدين فى سبيل الله (٨) .

إيمـــان : يا سبحان الله ، لم يستطع الصليبيون منع أبنائهم من الدخول فى الإسلام وبذل الروح فى سبيل الله ، فافتروا على سلاطين الدولة العثمانية كذبًا وزعموا أنهم يجبرون أطفال النصارى على الإسلام ليضموهم إلى الجيش الجديد .

الـوالـد : على كل ، فالله يقول : ﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا** ﴾ (٩) فبالرغم من شيوع هذه الفرية وانتشارها فى كتب التاريخ التى كتبها المستشرقون ومن سار على نهجهم عن الدولة العثمانية ، فإن الله قد قيض للإسلام من يدافع عن رجالاته ، بل إن قراءة ما كتبه المستشرقون عن تاريخ الدولة العثمانية ، يظهر تناقضا واضحاً فى أقوالهم ، ويكشف عن الحقد الكامن فى قلوبهم .

مثال ذلك ما زعمه بروكلمان من أن «الموظفين العثمانيين كانوا يأخذون الرشاوى من آباء الغلمان الأثرياء ليتركوا لهم أبناءهم» ، ويعود بروكلمان فيزعم «أن ضريبة الغلمان على ما كانت عليه من قسوة لم تولد لدى الآباء الذين كان أبناؤهم ينتزعون منهم مصدر قلق أو همّ كبيرين بسبب ما كان هؤلاء الآباء يؤملونه لأبنائهم من مستقبل باهر فى جيش السلطان فيرحبون بانضمام أبنائهم إلى الجيش» (١٠) ، إذن كلام بروكلمان يشير إلى مستقبل باهر كان ينتظر الذين ينخرطون فى سلك الجيش الجديد !

محمـود : أى الزعمين من كلام بروكلمان صحيح ؟ إنَّ الآباء غير راغبين فى التحاق أبنائهم بالجيش الجديد ويبذلون المال للحيلولة بين التحاق أبنائهم بالجيش ؟ أم أن الآباء كانوا يتطلعون إلى مستقبل باهر فى جيش السلطان فيرحبون بانضمام أبنائهم إلى الجيش.

الــوالــد : بل إن بروكلمان الذى قال هذا ، يقول فى موضع آخر من كتابه «إن الغلمان كان تدريبهم يلتزم بالمبادئ الإنسانية إلى أبعد الحدود على الرغم من صرامته (١١) .

أسـامـة : عجب لهؤلاء المستشرقين ، كيف يجتمع الضدان ؟ كيف يكون العثمانيون المسلمون فى غاية الإنسانية تارة ثم يكونون فى غاية الوحشية تارة أخرى فى نظر بروكلمان ؟

الــوالــد : ويزعم بروكلمان أيضاً أن هؤلاء الغلمان كانوا يُكرهون على التحول إلى الإسلام ويجرى ختانهم ويلتحقون بمدارس خاصة .. إحداها فى استانبول فى السرايا القديمة وثانيهما فى استانبول فى السرايا الجديدة والثالثة فى أدرنة والرابعة فى بيزة ويتعلمون فيها مبادئ الإسلام واللغة التركية والتاريخ الإسلامى العام والتاريخ العثمانى والنظم العثمانية ، وفى مناهج وضعت خصيصاً لتمحو كل أثر من آثار أصولهم الجاهلية فى نفوسهم ، وينسب بروكلمان تكوين الجيش الجديد إلى عهد أورخان !!!

إيمــان : ولكن استانبول وهى فى الأصل القسطنطينية لم تفتح إلا على يدى محمد الفاتح ، أى أنها لم تكن فى يد العثمانيين على عهد أورخان ، فكيف يزعم بروكلمان أنه كان بها مدرستين يلحق بهما أطفال ضريبة الأبناء ؟ إنه لكذب واضح فى كلام بروكلمان . كذب كذب يتستر باسم العلم .

الــوالــد : ما شاء الله عليك يا إيمان .. هذا صحيح ، هؤلاء هم علماء التاريخ الأوروبى .

محمــود : ملاحظة أخرى يا أبى !!

الــوالــد : أعتقد أن هذه المسألة قد أخذت أكثر مما كان يجب أن تأخذه مثل هذه الشبهات ، لذلك يجب أن نستريح قليلا قبل مواصلة حديثنا عن

الشبهات التى أثارها المستشرقون ومن سار على نهجهم على تاريخ الدولة العثمانية.

أحمـــد : سامحنى يا والدى ، قبل أن نغلق ملف الجيش العثمانى وضريبة الغلمان ، أود أن أستفسر عن طبيعة تكوين هذا الجيش ومدى قدراته الجهادية الخاصة وأنه ظل يجاهد العدوان الأوربى على العالم الإسلامى لمدة ستة قرون تقريباً (٦٩٩ - ١٣٢٦هـ).

الـوالـد : اعلم يا أحمد أنه من الأسس التى يقوم عليها عقيدة الجيش الجديد (الانكشارية) إحياء روح الجهاد الإسلامى ، وما يستلزمه ذلك من إعداد للقوة يقول ربنا رب العالمين : ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم . وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم**﴾ (الأنفال : ٦٠).

وقد امتثلت الدولة العثمانية لتوجيهات رب العالمين فى هذا الشأن ، وأعدت قوة عسكرية مجاهدة ، شهد لها الأعداء والأصدقاء .

يقول الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى فى كتابه الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها : «وكان الجيش العثمانى يتميز بالتنظيم العسكرى الصارم والتدريب الدقيق الطويل والعتاد الوفير وتنوع الأسلحة من مشاه وفرسان ومدفعيه وأسطول بحرى ، وكان سلاح المدفعية فتاكاً رهيباً كفل للعثمانيين انتصارات ساحقة وخاطفة على أعدائهم»(١٢).

«وفى الحروب العديدة المتلاحقة التى خاضها العثمانيون فى أوروبا ، وبخاصة فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) كان المراقبون العسكريون والسياسيون الأوروبيون يذهلون للمستوى الرفيع الذى بلغه الجيش العثمانى تسليحاً وتدريباً وتنظيماً وقد سجلوا آراءهم عن عظمة الجيش فى تقارير بعثوا بها إلى حكوماتهم ، على سبيل المثال ما كتبه بوسبيك السفير النمساوى فى استانبول عام ٩٦٢هـ/١٥٥٤م) ، وقد

هاله الفروق الصارخة بين الجيش العثمانى والقوات المسلحة للدولة الرومانية ، وقال أن دهشة بالغة تعتريه حين يعقد المقارنات بينها، ثم يفكر فى النتائج التى يسفر عنها الزحف العسكرى العثمانى على أوروبا فتروعه النتائج ، وكان مما قاله أن هاتين الدولتين كانتا تقفان فى مواجهة عسكرية ويقع الاشتباك المسلح بينهما ، وفى جانب توجد الدولة العثمانية ، وهى امبراطورية عظيمة قوية على درجة كبيرة من الثراء ، تحشد جيوشاً جراره تسودها روح عسكرية عالية وأفراد هذه الجيوش مدربون على الحرب يتحلون بالصبر والنظام والاتحاد والتيقظ وفى جانب آخر توجد الدولة الرومانية ، ويتصف جنودها بالإغراق فى الترف والميل إلى العناد والمشاكسة والاستخفاف بالنظام وحب الشهوات من الخلاعة والدعارة والفجور والإسراف فى الأكل» .

ويخلص هذا المبعوث النمساوى من مقارناته إلى القول بأن العثمانيين قد أعدوا للغزو وتحقيق الانتصارات ، أما جنود الامبراطورية الرومانية فقد أعدوا لتقبل الهزائم» .

وهذه شهادة لها قيمتها من عدة نواح :

لأنها صادرة من رجل معاصر ، ولا يمكن أن يتصف بالتحيز للعثمانيين ولأنه رجل عرف بدراساته العميقة فى تاريخ الأتراك العثمانيين ، وهى دراسات تقوم على المشاهدة والاتصالات الشخصية برجالات الدولة العثمانية» .

وهناك أستاذ أمريكى يسمى لبير Lebyer توفر على دراسة النظم العثمانية يقول :

«أن الجيش العثمانى كان يجمع بين أفراده جميعاً شعور الولاء العميق للسلطان وإذا صدرت الأوامر باستدعاء الجيش لحملة عسكرية كبرى اجتمع الجيش على بكرة أبيه حول السلطان وفى سيرة الجيش ومرابطته فى المعسكرات وفى خوضه المعارك كان كل فرد فى فرق الجيش يأخذ

مكانه بأوامر تصدر إليه من السلطان (١٣) .

وكان السلطان أيضاً هو المحور الرئيسى الذى ينظم جميع عمليات التشكيل التى تتم فى المعركة ، والكل يدين له بالولاء التام جسماً وعقلا وروحاً .

وبالإضافة إلى ما سبق فإن العثمانيين أدركوا أهمية السفن الحربية فى المحافظة على الدولة الإسلامية ومن ثم أنشأوا الأسطول البحرى الذى كان له الهيمنة فى وقت من الأوقات على البحار الأحمر والأبيض والأسود على اعتبار أن الدولة العثمانية كانت أقوى دولة فى العالم على مدار ستة قرون أو يزيد .

أحمـــد : سؤال أخير يا أبى من فضلك هل يمكن القول إن الهدف الذى من أجله أسس العثمانيون هذا الجيش الجديد (الانكشارية) هو نصرة دين الإسلام ، ولم يكن لمد حدود الدولة أو لتكريس المظالم أو لسلب ثروات الشعوب .

الـوالـد : تماماً يا أحمد ، إن الهدف الرئيسى وراء تأسيس هذا الجيش الجهادى -أحسبه- إقامة دين الإسلام فى أرض الله كلها حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وأعتقد يا أبنائى نتوقف الآن لنلتقط أنفاسنا ونستوعب ما عرفناه ولنا عودة أخرى إلى تاريخ الدولة العثمانية إن شاء الله.

سبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك.

أسئلة حول اللقاء الرابع

(١) هل أيقنت الآن أن الدولة العثمانية لم تكن دولة محتلة لديار الإسلام؟ وأن هدف العثمانيين من وراء تكوين جيش الجهاد الإسلامى الجديد هو أن تكون كلمة الله هى العليا؟ وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ومن جور المبادئ والأديان إلى عدل الإسلام؟ إذ لم تكن المادة العلمية كافية لتحصيل هذه المعلومة اقرأ الكتب التالية:

أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ، الدولة العثمانية جزءان د. جمال عبد الهادى، دار الوفاء.

سلسلة دراسات عثمانية (١) العثمانيون فى التاريخ والحضارة، أ.د. محمد حرب، المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى - القاهرة ١٤١٤هـ

مصادر ومراجع اللقاء الرابع

(١) الحجرات آية : ٦ .

(٢) وكان قد اتخذ أبو موسى رضى الله عنه ، كاتباً له نصرانياً ، فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قاتلك الله أما سمعت الله يقول : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض﴾ (آل عمران: ٥١) قال : قلت يا أمير المؤمنين لى كتابته وله دينه : قال : لا أكرمهم إذ أهانهم الله ولا أعزهم إذ أذلهم الله ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله وهذا لا يتعارض مع قول الله تعالى : ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذى قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ سورة الممتحنة اية ٨، ٩.

(٣) البقرة آية : ٢١٧ .

(٤) تنسحب هذه الكلمة على كل طفل لقيط أو مشرد لأى سبب من الأسباب . جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين الأتراك ، زياد أبو غنيمة ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ص : ١٢٢ - ١٥٦؛ التاريخ الإسلامى (٨) العهد العثمانى، محمود شاكر، المكتب الإسلامى دمشق، صفحة ٦٢.

(٥) نفس المرجع ، صفحة ١٤٦ ، العهد العثمانى، محمود شاكر، صفحة ٦٢-٦٣.

(٦) سورة النور ، آية : ١٢ .

(٧) جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين صفحة : ١٥٣ .

(٨) جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين ص : ١٥٤ .

(٩) سورة الحج ، آية ٣٨ .

(١٠) جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين صفحة : ١٢٣ .

(١١) جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين صفحة : ١٢٥ .

(١٢) الدولة العثمانية ، ج١ ، ص : ٤٩ - ٥٣ .

(١٣) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص : ٥٢ .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم وكتب التفسير، والسنة النبوية وشروحها.
- أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ، الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادى وآخرين، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة.
- الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، أ.د. عبد العزيز محمد الشناوى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- البداية والنهاية، الحافظ إسماعيل ابن كثير.
- السلطان المجاهد محمد الفاتح فاتح القسطنطينية، زياد أبو غنيمة، دار الفرقان، عمان.
- النظريات السياسية الإسلامية، أ.د. محمد ضياء الدين الريس، ط٧، دار التراث القاهرة ١٩٧٩ الإسلام والخلافة فى العصر الحديث، نفس المؤلف.
- الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر أ.د. محمد محمد حسين، دار النهضة العربية، بيروت.
- السياسة الدولية وفلسطين، أ.د. محمد كمال الدسوقى.
- الطريق إلى بيت المقدس، ج٢، د. جمال عبد الهادى، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة.
- التنصير، خطة لغزو العالم الإسلامى (الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التبشيرى الذى عقد فى مدينة جلين إيدى بولاية كولورادو فى الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٧٨، دار مارك للنشر.
- النكير على منكرى النعمة والدين والخلافة والنعمة، للشيخ مصطفى صبرى وقد قدم له وعلق عليه الأستاذ الدكتور مصطفى حلمى تحت عنوان الأسرار الخفية

وراء إلغاء الخلافة العثمانية، دار الدعوة الإسكندرية.

- العلاقة بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز فى الفترة ما بين ١٢٩٣-١٣٣٤هـ(١٨٧٦-١٩١٦) د. فائق بكر الصواف.

- الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى، أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور، ط٢، الأنجلو المصرية، عام ١٩٧١.

- البوسنة والهرسك جرح ينزف فى جسد الأمة المسلمة، د. جمال عبد الهادى، دار الوفاء للطباعة.

- البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة، تأليف د. محمد حرب (سلسلة بلدان العالم الإسلامى).

- التاريخ الإسلامى، العهد العثمانى، محمود شاكر، المكتب الإسلامى - دمشق.

- التبشير والاستعمار فى البلاد العربية، عرض لجهود المبشرين التى ترمى إلى إخضاع الشرق للإستعمار الغربى، د. عمر فروخ، د. مصطفى الخالدى، المكتبة العصرية بيروت ١٩٧٣.

- تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد تحقيق د. إحسان حقى، دار النفائس.

- تنصير العالم، مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثانى، أ.دكتورة زينب عبد العزيز، دار الوفاء للطباعة، المنصورة ١٤١٥هـ.

- جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين الأتراك، زياد أبو غنيمة، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

- حقوق الإنسان فى الإسلام، د. على عبد الواحد وافى، دار نهضة مصر.

- حقوق الإنسان بين تعالم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع.

- حرية الرأى فى الإسلام، د. محمد يوسف مصطفى، مكتبة غريب، القاهرة.

- رحلة ابن بطوطه من طنجة إلى الصين والأندلس وأفريقيا، أ. محمود الشرقاوى، الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٨.
- سلسلة دراسات عثمانية (١) العثمانيون فى التاريخ والحضارة، أ.د. محمد حرب، المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى، القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- سلسلة التاريخ الإسلامى للبراعم المسلمة، بيت المقدس إسلامية، د. جمال عبد الهادى وآخرين، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة.
- سلسلة أشرطة: غياب السلطة الراشدة وأثره فى محنة العالم الإسلامى، د. جمال عبد الهادى.
- سلسلة أشرطة: الطريق إلى بيت المقدس لنفس المؤلف.
- سلسلة أشرطة: اعرف عدوك لنفس المؤلف.
- سلسلة أشرطة: تاريخ المائتى سنة منذ عهد الاحتلال الفرنسى لمصر ١٢١٣هـ/١٧٩٨م.
- مذكرات السلطان عبد الحميد ترجمة وتقديم وتحقيق وتعليق أ.د. محمد حرب، دار الأنصار القاهرة نظام الإسلام، الحكم والدولة، محمد المبارك، دار الفكر بيروت.

مجموعة خرائط تبين نشأة وتطور الكيان السياسى للدولة العثمانية

نقلاً عن مجموعة التاريخ الإسلامى ، العهد العثمانى

تأليف : محمود شاكر

البحر الاسود
باطوم
طرابزون
قسطموني
انقرة
سيواس
ارتنا
قره عيسى
صاروخان
كرميان
ازمير
آيدين
منتشا
اكردير
قونية
قرمان
ملاطية
مرعش
أبناء ذو القادر
أبناء رمضان
أضنة
انطاليا
تكه
البحر المتوسط
قبرص
حلب
المقياس
كيلومتر

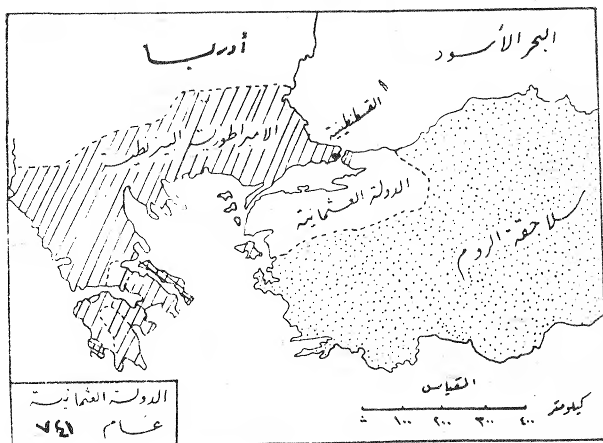
الامارات السلجوقية في الاناضول قبل قيام الدولة العثمانية

البحر الأسود
باطوم
طرابزون
القسطنطينية
بحر مرمرة
بيزنطة
كوتاهية
سلاجقة الروم
ازمير
قونية
حلب
البحر المتوسط
قبرص
المقياس
كيلومتر

المنطقة التي قامت عليها الدولة العثمانية



البحر الأسود
طرابزون
القسطنطينية
بحر مرمرة
أنقرة
سلاجقة الروم
قونية
أضنة
حلب
قبرص
المقياس
كيلومتر
الدولة العثمانية
عام ـ ٧٢٦



أوربا
البحر الأسود
القسطنطينية
الامبراطورية البيزنطية
الدولة العثمانية
سلاجقة الروم
المقياس
كيلومتر
٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
الدولة العثمانية
عام ٧٤١

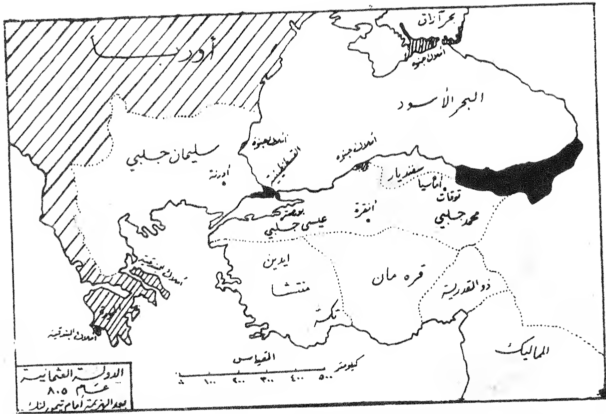
الدولة العثمانية
عام ٧٦١

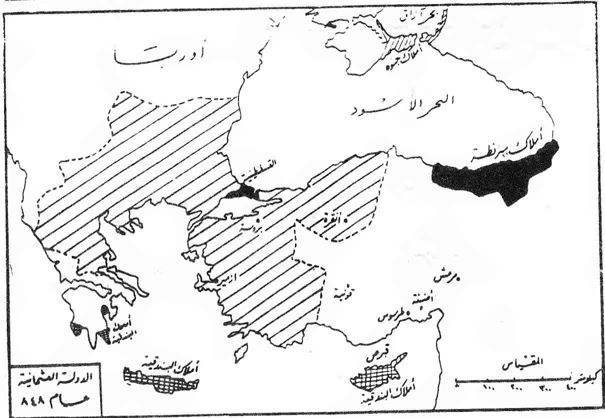
القسطنطينية
بورصة
انقرة
ازمير
قونية
المقياس

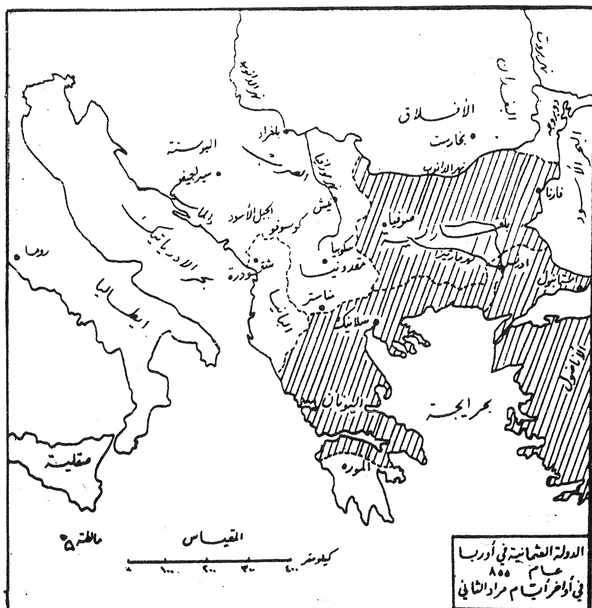
البحر الأسود
القسطنطينية
بيزنطة
امارة اسفنديار
العثمانية
بورصة
كرميان
ايدين
قونية
قرمان
امارة منتشا
امارة تكه
البحر المتوسط

المقياس
كيلومتر ٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠

الدولة العثمانية
عام ٧٥٥


الدولة العثمانية
عام ٨٠٥
بعد الهزيمة أمام تيمورلنك
أوربا
بحر آزاق
أملاك جنوه
البحر الأسود
سليمان جلبي
أدرنة
القسطنطينية
أملاك جنوه
أملاك جنوه
سفنديار
أماسيا
توقات
أنقرة
محمد جلبي
بروسة
عيسى جلبي
ايدين
منتشا
قرمان
ذو القدرية
تكة
أملاك البندقية
أملاك البندقية
المماليك
المقياس
كيلومتر
٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠


أوربا
بحر آزاق
أملاك جنوه
البحر الأسود
أملاك بيزنطة
القسطنطينية
أنقرة
بروسة
ازمير
قونية
مرعش
أضنة
طرسوس
أملاك البندقية
أملاك البندقية
قبرص
أملاك البندقية
المقياس
كيلومتر
٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠
الدولة العثمانية
عام ٨٤٨

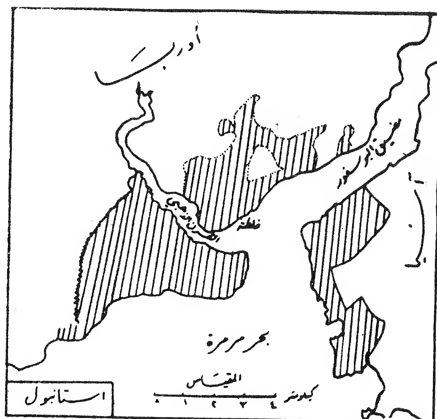

الدولة العثمانية في أوربا
عام ٨٥٥
في أواخر أيام مراد الثاني
الأفلاق
بخارست
البوسنة
بلغراد
سيراييفو
الجبل الأسود
نيش
كوسوفو
صوفيا
سكوبيا
مقدونيا
اشقودرة
مناستر
سلانيك
اليونان
المورة
بحر ايجة
الأناضول
فارنا
ادرنة
استانبول
روما
ايطاليا
صقلية
مالطة
المقياس
كيلومتر

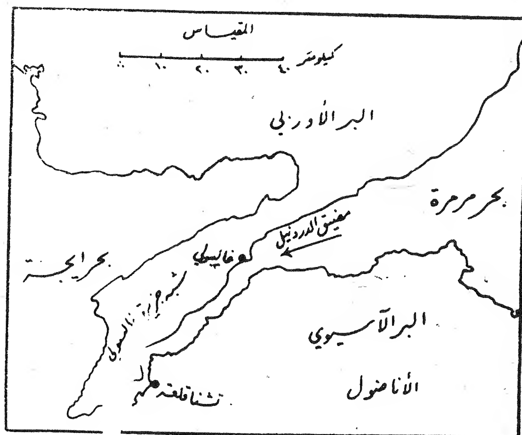
الدولة العثمانية
عام
٨٨٦

البندقية
البحر
النمسا
البغدان
الأفلاق
القرم
البحر الأسود
استانبول
اوترانت
ذو القدرية
المماليك

الفتوحات العثمانية
محمد الفاتح
سليم الأول
سليمان القانوني
سليم الثاني
مراد الثالث / محمد الثالث
أحمد الأول / عثمان الثاني / مراد الرابع

النمسا
فيينا
بلغراد
الأفلاق
القرم
البحر الأسود
استانبول
صوفيا
ايطاليا
البحر
شبه جزيرة العرب


أوربا
مضيق البوسفور
غلطة
بحر مرمرة
المقياس
كيلومتر
استانبول


المقياس
كيلومتر
البر الأوربي
بحر مرمرة
مضيق الدردنيل
غاليبولي
بحر إيجة
البر الآسيوي
الأناضول
تشناقلعة